فتاة من عشيرة الطل

قصص

محمد مهاجر

فتاة من عشيرة الطل
المؤلف : محمد مهاجر

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : سبتمبر 2018
رقم الإيداع : 2018/16667
الترقيم الدولي : 978-977-769-227-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم
- من صبري أبوعلم - عمارة أنور
وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

الإهداء:

إلى أسرتى وأصدقائى

فتاة من عشيرة الطل

ها هى الغابة المترفة تمد يدها الناعمة لكى تزيل ستائر الغسق عن كل النوافذ والقباب وتعطى الإذن النهائى لأشعة الضوء الضاحكة لكى تتسلل إلى عرصاتها وتستقر فيها. وأنا أزحزح رجلى القلقتين ذات اليمين وذات اليسار لكن الحجر الأملس يأبى إلا أن يمتص المزيد من البرد فيقرس أطرافى قرسًا موجعًا. والذى منعنى من التضجر هو أمر جلل. والفتاة المدللة تشعر فى هذه اللحظات بأن رسل الفجر الباسمة قد تسللت خلسة إلى مخدعها الجميل واتخذت لها مواقع للتلصص.

متثاقلة تنهض الفتاة وتمسد جفونها الطرية وتفرد ذراعيها وتتمطى وتتمايل وتتمايل كذلك المتعة الذائبة فيها وأخيرًا تضع يديها على خصرها الأسطورى وتستدير ذات اليمين وذات الشمال وهي تتبسم ضاحكة وتدندن. وفى الوقت الذى أنزلت فيه رجليها إلى أسفل وهمت بمغادرة المضجع السندسي الوثير همهمت، فترددت فى الأمر وفكرت ثم قررت الاستجابة لرغبتها الملحة لكنها تراجعت

فى آخر لحظة.

تمامًا كما كنت أتوقع قذفت الفتاة من جديد بجسدها الرقيق على الوسائد وظلت مستلقية على ظهرها. أشعر أنها تفكر فى أمر ما، وهو الأمر الذى جعل الصور المشرقة من سنين طفولتها تتساقط على بساط ذهنها الصافى. وهى بلا شك ترى الآن مشهد أنامل أمها وهى تغوص بين ثنايا شعرها الذهبى البديع، فتقوم الأم بفرد الشعر وتهذيبه ثم تجدله ثم تعيد العمل فتجوده فتعيده مرة أخرى حتى يطمئن فؤادها. وكانت الأم تتدخل فى اختيار الملبس والزينة والحقيبة وفى كل صغيرة وكبيرة فى حياة صغيرتها المدللة. وفى المساء كانت الأم تقوم بنفض العوالق من الفراش ثم توهطه وتضع عليه الملاءة والمساند. وكانت تعتقد أن ندى مازالت فتاة صغيرة تحتاج إلى الرعاية ما دامت لم تكمل المرحلة الابتدائية بعد. وها هى ندى تتبسم من جديد وهى تتأمل حالها الذى بدله الزمان.

ندى أصبحت الآن فتاة ناضجة تحلم بحبيب يأتى من بعيد. وفى هذه الهنيهات تشعر أن أنامل النسيم الناعمة تداعب كفها البلوري الفاتن. وتتبسم ندى بعذوبة راقصة وتطقطق أصابعها وتحدق في الأفق البعيد. أحسب أن المشهد سيزداد روعة لأن الفجر جعل يحزم حقائبه إيذانًا بالمغادرة. وتبسمت الفتاة من جديد وجلست على طرف السرير وهى تراقب رفاق الصبح الذين هبطوا تباعًا وملأوا

المكان. وها هنا عصفور غر يغنى فيصمت فجأة لكى يسترق السمع إلى أنغام الخرير.

وأنا الآن أستقيم واقفًا لما شعرت بالحجر الأملس اللقيط يمعن فى مضايقتى. أنا الذى قررت أن أتحمل برد الفجر لكى استقر قريبًا من مخدع ندى وأندمج تمامًا مع لحظة السبق الممتعة التى أرى فيها الوجه الساحر يشرق ملء الأرض، فلا حجارة ترغمنى على الهروب ولا جبال عنيدة تثنينى. ومثلما فعلت بالأمس ستخرج الفتاة بعد قليل إلى الشرفة. أنا أحبها حبًا مجنونًا وأتمني أن أظفر بكلمة واحدة تخرج متبخترة من فمها العذب. أف أف، في كل مرة لا أجد منها إلا تلويحة سريعة تغادر بعدها إلى مكان بعيد. وأعود لأجلس فى المكان وأعتدل فى جلستى رغم أنف الحجر العنيد وأسند ظهرى على صخرة أخرى وأهيئ نفسى المطمئنة لما سيأتى وهو بلا شك سيصبح أكثر روعة وأوفر لذة حين يتماهى مع بهجة الاندهاش.

وضوء الأرض الآن يكفى لكى يحفز ندى على السير نحو المرآة وإدامة النظر إلى الكرزتين النضرتين المتراقصتين على شفتيها النديتين. أحسب أنها الآن تكتب بمداد التوت البرى النزق على المرآة وترصع العبارات. وللمرة الألف سوف لن تقدر على إكمال قصيدة الحب التى بدأتها منذ سنين بعيدة وظلت تزيد فى أبياتها وتعدل الأوزان والإيقاعات. وكعادتها ستخبئ القصيدة بين ثنايا جدار قلبها

الرقيق. فى المرة السابقة انتظرت حتى ذهبت فتسللت إلى حجرتها لكننى وجدت أن الضباب قد استطاع أن يمحو كلمات كثيرة، ومع ذلك استطعت أن أعيد تركيب القصيدة التى تقول بعض كلماتها:

نعم أنت هو وهو أنت
أنت لا غيرك أنت تثير انتباهى
ممتع أنت وخفيف الروح ووضاح المحيا
جحافل الأسئلة تضايقنى فهلا تبوح إلى
وهلا تريح دماغى المشوش هلا؟
وماذا تخبئ داخل عينيك أيها المدلل، ماذا؟
رضا مقلتيك مالات التمنى، فلماذا العناد، لماذا؟

فرصة واحدة هى فى اللحظة التى تستدير فيها ندى وتركز بصرها جيدًا فى هذا المكان الذى أجلس عليه. وحين يكتمل الشروق ويصفو العسل الحلو الرابض فى عينيها ويزداد نضارة ستصبح حبيبتى أقل مقاومة لتيار البوح الجارف. نعم ستبوح لى وسأبوح لها بكل كنوز الصبابة. نعم صب أنا ومتيم حتى النخاع لكن لست رعديدا فأصمت أيها الحجر الغبى.

وأنت الآن أكثر نضجًا يا ندى وهذا الصباح الجميل ستتبختر فخامته وسينمو كرمه وستتدلل رقته حين تنهضين وحين تخرجين وحين تقهقهين فى اللحظة التى يعبث فيها المهرجون أجمعون.

وستعزف فرقة الغابة موسيقاها الطروبة وتغنى معها الأشجار وترقص الأغصان والأزهار. أرى الآن عصفورك يقف على حافة الشرفة وهو يشبك أصابعه بأصابع محبوبته ويحيطها بذراعه وينشد ملء الأرض. أما الحبيبة فإنها كانت تداعب كتفه باستمرار. ولما اشتط الحبيب فى العناد قرصته قرصة لها وخز مثبط. وتألم المسكين لكنه تماسك فتجاهل الألم نزولا عن رغبتها الطازجة فوضع يده من جديد على كتفها فضحك ثم رقص الاثنان تصحبهما المتعة. كل هذا لا شك سيلهمك يا ندى. وأنت تعرفين بأننى شاعر مثلك لكن قصيدتك الأخرى حيرتنى

لماذا ظللت ترفض أن ترضى فؤادى؟
لماذا لا تجود لى بما يبدد كل ضباب الأسئلة؟
الأمر جد يقلقنى
أسرتى على حافة التشتت
فهل سنتجرع مرة أخرى من كأس الحرمان الحنظل
سأصب لك الكأس، لا تقلق يا حبيبى، لكن سنشرب
لوحدنا هذه المرة

بالأمس أعدت قراءة الكلمات عدة مرات وفى كل مرة كانت حيرتى تزداد وأسئلتى تتوالد. والآن أحاول التأمل مرة أخرى لعلى أهتدى إلى ما أوصل الأسرة إلى تخوم التشتت.

وأنت الآن وحدك يا ندى تفكرين فى أيلولة حبنا يا سليلة الشموس!! لست متغطرسًا يلوذ بحائط النفاق ولا شبقًا تقوده الشهوات. أرجوك لا تسألى عنى قطع البلور الغر الجاثم على صدرك. اتركى ذلك فأنا لا أطلب إلا رضاك يا غضة الإهاب يا خضراء الترائب يا ولودة الساقين يا طاهرة الخد. أرجوك لا تتركى الغرور يتسلل إلى قلبك. ومن قبل سألت عن قصتنا كل الأزهار والأشجار والطيور والأيائل وهمهمت الظلال ولجت فى السؤال. وأخيرًا أصبح الكل يردد القول:

انتصرتما

نعم ومنذ عهد بعيد كان الحب دائمًا هو المنتصر. وكانت الغابات والإصباحات والأمسيات تزجى التحايا الطيبات وترسل الأمانى بالهناء والسؤدد. أما الحاسدين والعذال والخونة فقد بخعت نفوسهم وكان حصادهم نتاج ما زرعوا ولن يجدى نفعًا صبهم اللعنات على الأقدار والظروف. وأنت يا ذات العينين الكحيلتين لسوف تخرجين الآن وأنت أكثر بهاء وستصحبك الدهشة.

وسوف أحدثك بما رأيت فى تلك الليلة. كنت وقتها مسكونًا برغبة ما ولما التفت إليك وجدتك تنظرين إلى لكنك بسرعة حولت بصرك بعيدًا عنى. واستدرت نحوى مرة أخرى. كنت أظن أن لديك رغبة ملحة فى التأكد مما رسخ فى ذهنك. وفعلا صدق الحدس،

تلاقت أعيننا وبسرعة غض كل منا بصره. نظرت إليك مرة أخرى وفى لمح البصر أشحت بوجهى بعيدًا. كنت أقل جرأة منك، أعتقد. ومع حرصى فإننى لم أحدث نفسى بالتوبة عن التقرب منك لكن الذى أعاننى على الصمود هو أننى عايرت بين موقفينا فأصبحت بمنأى عن افتضاح لهفتى. وطالت المدة فوقع ما كنت أخشاه. وضحكت بشدة يا ندى وشملتك السعادة الغامرة يا أغنية عذبة أنشدت فى مواكب الحبور. وبدورى ضحكت من أعماق روحى. وظلت البسمة مرسومة على شفتيك ولسان حالك يقول:

قبضت عليك متلبسًا

وأصبحت تهرولين ثم تقفين لكى تلتقطى مشاعرك. وفى لحظة ما كنت تفكرين فى جرد حساب حبنا. الشك عندك هو اليقين عندى. وظللت أنظر إلى وجهك الصبوح يا غراء يا حديقة البلور يا ملحمة ممزوجة من براءة الأطفال وألق الإصباحات البديع.

انتظرينى لحظة حتى أفرك عينى من جديد لأننى حين أفتحهما ستكون الرؤية واضحة المرمى رغم أن النعاس أصبح يشاغبنى. حسنا سأسند الآن ذقنى على قبضتى وأغمض عينى. هل خرجت؟ إنى أسمع الصوت القادم إلى الشرفة أنه يقول:

هذه الزهور لك، هدية لك، لك أنت وحدك ولا أحد غيرك.

نعم يا أهل الغابة هى حبيبتى، ندى حبيبتى خرجت، وأعلن

للعالم كله أنها خرجت. ريانة الخطو خرجت وهى تنثر البهجة من حولها ثم تضع باقة الزهور على المنضدة. وابتسمت فابتسم المكان كله وانتشر الوهج وملأ الغابة وطغت العذوبة. والآن أحس بالنشيد العذب ينسال من بين جوانحى.

الرجل الموشوم يلكزنى عدة مرات لكى يفسد على متعتى. وهو الآن يشعر بثقل يدى الملحاحة الملقاة على كتفه. وبرفق ينزلها ثم يستدير بهدوء ويتحدث معي بعبارات قصيرة ركيكة ونبرة سريعة خافتة. وفهم الرعديد مقصدي وأوعدنى بأن ينأى بنفسه تمامًا عن الأقدام على إزعاج ندى وإفساد متعتها باستقبال صبح جديد. لكن الرجل أسهب فى الشرح وأوضح لى أنه يرغب فى فهم ما تقوم به الفتاة فأخبرته أنها عبارة عن طقوس درجت على القيام بها كل صباح، وهى تعودت على فعل ذلك منذ أن بلغت سن الرشد. وحدثنى بأنه مر صدفة فرآها تقف وتتمطى وتبتسم فارتسم فى ذهنه مشهد مرحب. وقلت له إننى متيم منذ أمد بعيد ولا أجد نفسى إلا معتقلًا داخل أسوار حالة أسطورية عصية على الوصف.

وتحركت ندى بخطوات بطيئة حتى بلغت حافة الشرفة. وتمطت من جديد وتبسمت وببطء شديد عدلت من وضع فستانها السندسى الناعم. وأدارت وجهها صوبنا لكنها بسرعة حولت بصرها بعيدًا عنا. وكانت تعلم أن الرجل الغريب يراقبها ويضايقها بالنظرات

الخارجة من الوحل. ولاحظت منذ حين أن الرجل الملحاح ابتعد عنى وذهب إلى هناك واقترب من الشرفة واعتدل فى وقفته وباعد بين ساقيه ثم وضع يده اليمنى على جيب بنطاله الأمامي وظل ينظر إلى ندى ويتبسم كالأبله. وعدل من وقفته لكى يحاكى هيئة الرجل الخشن الوقح. وهز رفيقى جثته المهلهلة هزات سريعة. ورميته بحجر فلم ينتبه ففكرت أن أذهب وأمسك بيده اليسرى ذات الوشم الغريب وأرغمه على التراجع؟ تبًا له أنه يتراجع أخيرًا مغتاظًا فيجلس بجانبى ويشيح ببصره بعيدًا عنى حتى يتفادى شرر يقفز من عينى. إنه ينظر إلى خلسة ولا يتحدث، نذل وصفيق. والآن أطرق الرجل وظل منكسًا رأسه وهو صامت ويتنفس بسرعة. هل يريد أن يعتذر؟

وفى اللحظة التى أدرت فيها وجهى بعيدًا عنه، وجدت أن ندى أدارت جسمها ودلفت إلى الداخل وتركتنى أمسك برزمة أمل. وهو كذلك يتمسك بسراب من أمل ويحدق نحو الشرفة المهجورة. وظهر على وجه ندى أنها مشغولة بأمر ما يحدث بالقرب من السرير. وفى لحظة مرت قبل قليل أمسكت فتاتى بأطراف الملاءة الفضية وهي تحاول طيها بضم الزوايا المتقابلة إلى بعضها البعض. وبعد لحظات اتضح لها أن المهمة لم تك بتلك السهولة التى رسخت فى ذهنها. والرجل صاحب الوشم الغريب كان يرغب ويلح فى الذهاب

لتقديم المساعدة لكننى لم أتركه. وها هو يتحرك وأنا أجذبه وأوضح له بأنه شخص رخيص مبذول مزعزع الثقة. وأخيرًا ها هى ندى تنجح فى المهمة وتمسك الملاءة بكلتا يديها وتقذف بها بعيدًا.

ولم يفهم الموشوم الطقوس التى قامت بها ندى لكنه خمن أن الأمر محض حمق واستهتار غبى. وبعد لحظات عاد ففكر مليًا ثم قال لى:

أحسب أنها تعمدت أن تنثني ببطء شديد حتى يستبين تكور إليتيها..

لن أتحدث إليه ويكفى أننى حدجته بنظرة مستنكرة صارمة أظن أنها كافية للذب عن محبوبتى. لكن الرجل أصبح يتمادى ويتمسك بخططه اللئيمة فيتبسم بغباء ويجمجم ثم يردف قائلًا:

والبنطال الشفاف؟ إنها شبه عارية يا صاحبى، الشمس أخيرًا فضحتها.

فى هذه اللحظة أشعر أنه تمادى كثيرًا ويستحق العقاب. وسأقترب منه وأمسك بتلابيبه وأشد وأصرخ فيه:

اخرس أيها النذل اخرس

والكلمة ذات اللهجة الحاسمة والمتوعدة قد لا تنجح لكن اللكمة حتمًا ستجعل النذل يتراجع عما عزم عليه.

والآن يقرر الرجل الموشوم أن يهرب منى ويتجه إلى بيت ندى. لعابه يسيل ويصبح السائل عبيط اللزوجة ويتناثر غبار الشهوة من

بين رجليه. يحيطه العفن وفى يده اليسرى حلوى رخيصة يلوح بها. ويتعثر فيقفز فيحط على حجر زلق فيتدحرج إلى أسفل الوادى. ويمسك بغصن طرى فيسقط هو والغصن. وفى منتصف الطريق يتعثر المافون من جديد ويقع فى وحل آسن. واسمع الآن ضحك الوعول المجلجل.

الشمس خلعت ثوبها العسجدى وارتدت هندامًا فضيًا رائعًا جدًا. وفى هذه اللحظة تتحرك ندى إلى الداخل مرة أخرى لأنها أحست بألم اللفح المستديم. وأراها تغسل يديها ووجهها ورجليها. ويسيل الماء الطاهر ويجرى النهر الكوثر. وتجلس حبيبتى على جانب السرير مطرقة الرأس تتأمل حالها وتراجع الخطط. وأشعر الآن أن الملاءة ازدانت بالخضرة الصافية والبهاء. ندى لا تتحمل الحر، فبشرتها أرق من النسيم وجسمها بلورة سماوية زكية شفافة وطاهرة الجوهر. وبلا مقدمات هوت الفتاة إلى أسفل وغادرت وتركت الباب خلفها يضرب على طرف القائم حتى سمع الجميع صوته.

إنها الفرحة، الفرحة هى التى أذهبت عنها ألم السقوط الحنظل وجعلتها تفرد جناحيها من جديد وتحلق عاليًا فى الفضاء. نعم ستذهب إلى هناك وستجد أهلها ينتظرون مقدمها وستحكى لهم حكايتها معى وستضحك معهم وترقص. وفى المساء ستوشوش لصديقاتها وستداعب آذانهن بالحديث العذب. وستغنى مع الجوقة

ومع ابن عمها الذى كان قد طلب يدها فى لحظة اكتمال بدر الشهر الماضى. وستنثر فتاتى الفرح بين الجميع. وبعد حين ستلبس تاجًا من الفضة ودثارًا من البلور. إن نوبة العمل النهارى انتهت وحان وقت التجديد.

وأنا الآن وحدى فرفيقى المأفون اختفى. وسأظل أرنو إلى حبيبتى وهى تصعد نحو السماء. أنا لست إلا مولها مجنونًا وإمامًا للمتيمين. وقد تعرفت على الفتاة منذ عهد بعيد وعرفت أهلها وألفتهم وألفونى. إنهم قوم من البدو من شعب الماء جبلوا على رحلتين، رحلة الصعود حين تطلع الشمس وتبدل ثوبها الذهبى وتزداد حرارتها، ورحلة العودة عند المساء حين يبرد الجو ويستكين. وشعب الماء يتكون من عدة قبائل وأفخاذ وعشائر. أما معشوقتى فهى قطرة ندى بلورية تنحدر من عشيرة الطل. وهى عشيرة أفرادها أنقياء أرقاء القلوب شرفاء سيرتهم ناصعة نقية كنقاء أجسادهم الشفيفة. أبوها اسمه الزمزمى وأمها شريفة المنبت والمنتهى تدعى سلسبيل. أنا ذاهب الآن إلى حال سبيلى لكن حتمًا سأعود غدًا عند الفجر.

خلاسية

لم تك تلك هى المرة الأولى التى تمر فيها الفتاة الخلاسية البدينة بالقرب منهم، لكن شيئًا ما جعل الرجال فى ذلك الوقت يسترسلون فى الضحك ويرفعون أصواتهم ويقهقهون ويضربون بأرجلهم على الأرض ويضربون على أطراف المقاعد وتهتز أجسادهم المستهترة هزات واضحة متواصلة. وبالرغم من أن الرجل صاحب القميص الأبيض كان يجاريهم فى كل شىء، إلا أنه فى نهاية المطاف حكم على الفتاة بأنها مهذبة وصريحة وموضوعية، معتمدًا على انطباعاته واستنتاجاته من المعلومات التى تلقاها منهم.

كانت الفتاة تمشى بحذر مميز لكن الرجل اعتبر ذلك سلوكًا طبيعيًا فى احتفال أمه الآلاف من البشر من مختلف الجنسيات. وحين اقتربت الفتاة من دورات المياه لم تقدر على الانتظار فسارت قفزًا وتخطت عددا من النساء الواقفات فى الطابور حتى استطاعت أن تفرض الأمر الواقع وتجد لنفسها موقعا فى المقدمة. وفى تلك اللحظات ضحك الرجال من جديد وقهقهوا واتبعوا نفس الطريقة السابقة فى التهكم.

وحين عم الصمت مجلسهم وضع الرجل الثرثار يده برفق على كتف الرجل الرزين صاحب القميص الأبيض وقال:

تجنب الاصطدام بها لكيلا تؤذيك. اعرف أنك إنسان مهذب

حدق الرجل مليًا فى عينى صديقه صاحب القميص الأزرق وانتظر منه المزيد. ولأن الصديق الثرثار كان واثقًا من حديثه فإن خيبته كانت كبيرة حين شعر بأن تحذيره لصاحبه ذهب أدراج الرياح. وفوق ذلك غضب لأن الرجل الرزين هاجم كل زملائه واتهمهم بالتحامل على الفتاة الخلاسية على الرغم من احتمال معرفتهم بحقائق غائبة عنه وكذلك فإنهم قد سبقوه إلى مكان الحفل.

وكان الرجال لطيفين جدًا مع صاحبهم الرزين. وكانوا مرحين ومنفتحين على الرغم من أنهم من بلدان مختلفة ولغاتهم الأصلية مختلفة. وكان اثنان منهم فقط هم أصدقاء له وزملاء عمل أما بقية الزمرة فمعرفته بهم كانت فى غاية الزهد. ولأنه إنسان أثير جدًا عند أصدقائه ومعارفه فإنه لم يجد صعوبة فى الاندماج مع المجموعة. وكان مزاجهم صافيًا فى ذلك اليوم وهذا الأمر سهل لهم هبة الاستمتاع بالحفل. وفى فترة الاستراحة كانوا يثرثرون كثيرًا ويسردون كل أنواع النكات وبلا استحياء. أما روعة الطقس وتنوع الحضور الاثنى والثقافى وتوازن البرنامج والفنانين الممتازين والجوقة المقتدرة، فقد تكاملت مع بعضها وضمخت المكان بعبق استوائى ساحر

حين دخلت الفتاة الخلاسية إلى التواليت تواطأ الجميع على الكف عن الحديث عنها. وبالرغم من أن البعض ظل يتحدث عنها انطلاقًا من معرفة لصيقة، إلا أن الرجل الرزين أصر على موقفه الأول ولم يقتنع بإحكام المجموعة عليها عندما أخبروه أن طباعها لا يمكن أن تدعم ادعاء أنها إنسانة اجتماعية وكذلك أضافوا أنها غريبة الأطوار. وفى غالب الوقت كان الرجل يضحك كثيرًا عند سرد النكات، وفى بعض الوقت كان يحتفظ لنفسه بحق العودة إلى حال الهدوء وإعادة ضبط إيقاع مشاعره. وبمرور الوقت اتضح لمجموعة الأصدقاء أن صاحبهم يتضجر كثيرًا من الخوض فى حياة الناس الخاصة. وحين ظهرت الفتاة من جديد شعر الرجل بأنهم ينتظرون منه رد فعل ما فقال لهم:

قد تحمل فى دواخلها طباعًا طيبة

لم يرد عليه أى فرد من المجموعة لأنهم كانوا ينتظرون منه بأن يأتى بحجج منطقية قوية تدعم رأيه. وصمت وساعده الصمت على التفكير الجيد الذى ألزمه جانب حياد الحكم والموضوعية. واكتشف أنه قد غض الطرف عن هيئة الفتاة الشعثاء الغريبة. وأنب نفسه فيما بعد لأنه يعلم بالبداهة أن النساء يبذلن مجهودات كبيرة للاعتناء بأنفسهن قبل الخروج إلى الحفلات.

وفى لحظة صمت أدار الرجل رأسه بهدوء فوقعت عينه على

الفتاة الخلاسية التى كانت تقف على البعد وتضع على رجليها جزمة بلاستيك وتلبس سروالا رياضيًا وقميص تى شيرت فوقه تنورة قصيرة تشبه تنورات لاعبات التنس. وقدر الرجل أنها كانت تقصد تحسين هندامها الرياضى لكن تنافر الألوان وعدم الاتساق ومظاهر الإهمال نسفت كل جهودها. وعاد فتأمل فى الملابس فوجد أنها تحمل علامة تجارية مشهورة، فأراد أن ينافح بذلك عن الفتاة لكنه فى آخر لحظة استبعد الحجة لضعفها. ولما حوصر الرجل عاد إلى حديثه الأول حول قوامها الإفريقى الجذاب والعسل الحلو المذاب فى عينيها. وأكثر من تغزله بشعرها الأشقر الغامق القوى المتهدل على كتفها. وعلى الرغم من أنها كانت بيضاء البشرة إلا أن نفسه كانت تستدعى له صورًا مشرقة من جمال المغربيات الفاتنات. وكان يراقب الصورة المرسومة على جدار ذهنه أثناء الحوار. وحين أمعن فى التحيز لم يجادله أصحابه. وأخيرًا ظهر له أن حديثه لم يغير أى شىء يتعلق بموقفهم من الفتاة. ولما استحثهم على التعاطف واستكثر من عناده، ردوا عليه بصوت واحد:

إنها وقحة جدًا وعنيفة فى تعاملها مع الرجال

ومع النساء كذلك

أما أنت فانتظر دورك

وظل الرجل صامتًا مذهولًا من فرط انحيازهم ضدها

هنالك نساء كثيرات يتمتعن بجاذبية عادية ومع ذلك يستطعن بسهولة لفت الأنظار إليهن لأنهن يعتنين بأنفسهن وأناقتهن. والمتفق عليه بين المجموعة هو أن الفتاة الخلاسية تعرف ذلك وهى ليست غبية لأنها تشغل وظيفة رفيعة فى شركة مرموقة. لكن الرجل ذا القميص الأبيض اعتبر قلة أناقتها إهمالا مؤقتا. أما ما يعتبره غيره عنفا وتطرفا وتهورا فهو يراه صراحة مرغوبة وصدقا مع النفس يتماشى مع مبدأ الالتزام بجانب الحق فى كل الأوقات. الصدق فضيلة تنجى والحماقة رذيلة تهلك. هكذا كان رده.

وبمرور الوقت أصبح الرجل يمنى نفسه بأن يجد الفرصة النادرة التى تسمح له بأن يتحدث مع الفتاة ويخبرها عن آرائه وينصحها بأن تبذل مجهودات أكبر للعناية بنفسها. أما تحركاتها الكثيرة فقد استطاع إقناع الجميع بأنها لا تشكل شذوذا عن القاعدة فى ذلك اليوم لأن كل الناس كانوا مبتهجين وكرماء جدًا ويشربون ويأكلون كثيرا ويسكرون ويتحدثون مع الغرباء ويضحكون ويذهبون إلى المراحيض.

وقف الرجل الرزين وتدبر أمره وفكر فى الكثير من البدائل لكنه أخيرا قرر أن يخرج ويتمشى بمفرده ويجرب. وكان فى طريقه يمنى نفسه بأن يلتقى بالفتاة فى مكان بعيد عن جمهرة الناس لكن لسوء حظه صادفها قرب مكان آخر. وهو نفس المكان الذى لم يك أبدا يتمنى أن يمكث فيه وقتا طويلا، وبالمثل لا يتمنى ولا تغشى هذه

الرغبة أى إنسان آخر.

جعلت الفتاة تخطو بثبات فى اتجاه الرجل الرزين وهى خارجة للتو من مبنى التواليت. وتوقفت تماما عن الحركة فى نفس اللحظة التى لمحته فيها وانتبهت. وبدوره انتظر فى مكانه حتى لا يضطر إلى الاقتراب من المكان ذى الرائحة الكريهة. ولأن عدد زوار المراحيض كان كبيرا جدا، فإن المكان أصبح بمرور الوقت مكتنزا جدا بالعفونة. وانتظر الرجل لمدة طويلة لكن الفتاة لم تقترب منه. ولأنه كان قد عقد العزم الأكيد على التحدث معها، فإنه تحمل دقائق الانتظار المؤلمة وغرقت ملابسه وشعره فى العفن الرطب. ومرت دقائق وأصبحت المسافة بينه وبين الفتاة تتضاءل. وأصبح يقترب كثيرًا من النقطة التى سوف تتأكد فيها صحة فرضياته التى ذكرها فى سياق الدفاع المستميت عن الفتاة الخلاسية.

أصدقاؤه كانوا على يقين من أنه قد تورط فى الترويج لأفكار فطيرة لذلك فإن عدم نجاحه فى الدفاع عنها حين يرجع يحتم عليه أن يعترف لهم بأنه كان يسوق هراء محضًا وأن يعتذر كذلك. وهو تحداهم وهو يعلم أن ذلك التحدى قد يصبح غالى التكلفة. وهو لا يريد أن يخسر السمعة الطيبة التى تركها عند الغرباء من أفراد الزمرة الذين تعرف عليهم فى ذلك اليوم لكن فى أحايين كثيرة تفلت الأمور من بين يدى المرء فيجد نفسه فى موقف لا يرضاه لنفسه ولا للمقربين منه.

سوى الرجل وضع بدلته الصيفية الأنيقة ومسح حبيبات العرق من على جبينه الحنطى وحرك أطرافه وأدار عنقه عدة مرات وطقطق أصابعه. وبعد حين أقنع نفسه بكمال الاستعداد وقرر أن يتقدم. وخطا خطوتين لكن جال بخاطره تصور كيف يحارب بنجاح فكرة الانسحاب التى كانت تراوده بين الحين والآخر.

أحيانًا يشكل حب الاستطلاع دافعًا قويًا للإصرار والعناد ويحض على الثبات والمسير إلى الأمام. والرجل يعلم تمامًا أن بإمكانه الانسحاب ويعلم كذلك أن النظرة الثانية قد تكون لها تبعات ونتائج لا تسره وقد تجرحه. وفى حال إصابته بمكروه فسوف لن يجد من يبحث له عن أعذار. وتفحص ملابسه من جديد ورفع رأسه والتفت ذات اليمين وذات اليسار وحين نظر إلى هيئة الفتاة فكر جديا فى التراجع.

كان الوضع مخالفًا لتوقعاته كلها، لكنها كانت الحقيقة المرة، فقد شاهدها وهى تعدل سروالها وتنورتها بطريقة لا يمكن إلا أن توصف بأنها غير مهذبة البتة وفوق ذلك فهى كانت ملفتة لكل الأنظار. وغض بصره ثم فرك عينيه ثم عاد فركز بصره فى وجهها جيدًا. ومن جديد خيبت ظنونه إذ لم تظهر عليها علامات الإحراج على الإطلاق ولم يبدو عليها أى مظهر من مظاهر الألم. الإنسان المحرج عادة يتبسم فى مثل تلك الأحوال أو يظهر مشاعر الانكسار لكن الفتاة أظهرت ما يناقض المنطق السليم والعرف السائد والذوق العام، ناقضتها

تمام التناقض. كان الغضب يفور وينمو ويكسو وجهها كله وكانت متوترة وأصبحت تحدج الرجل بطرف ملتهب جدا. وتأكد له أنها تتأهب للقيام بفعل ما.

أصبح الرجل الرزين يفكر جديا فى كل مآلات الوضع. وهو يعلم تمام العلم أنه ظل يحتفظ للخلاسية بصورة حسنة جدًا لكن وجد نفسه فى نهاية المطاف فى موقف المهزوم لا البطل الشهم. وتقدم بهدوء وخطوات حذرة وهو يتحسب لكل ردود الأفعال. ولم تطاوعه نفسه على فكرة العودة إلى زمن مضى أو التقهقر إلى المكان الذى أتى منه. ولو حمل نفسه ورماها فى ذلك الزمان فسيصبح الزمان بئس الزمان ويصبح المكان ملوثًا بسلوك الخلاسية الجديدة. والتراجع حسب عرفه هو جبن ممقوت ويشجع الآخرين على الاعتداء.

وفى وقت لاحق سيسأله أصحابه حول استبعاده لفكرة المبادرة بالهجوم على الفتاة. هو يعرف نفسه جيدًا فهو إنسان مهذب وهادئ الطبع ويحترم قيمه. وهو لا يبادر بالعدوان لكنه فى نفس الوقت يستطيع أن يدافع عن نفسه باقتدار إذا ما تعرض لهجوم. وازدادت الحيرة المحيطة به وتلاطمت الأفكار فى رأس الرجل المسكين، هل يهاجم أم ينتظر؟ وأخيرًا قرر أن يواصل المسير العسير. وحين اقترب من الفتاة انطلق من بين شفتيها الغليظتين سيل عارم من الشتائم البذيئة. كانت تصرخ فيه بصوت مدو بشدة ومزعج غاية الإزعاج.

استدار الرجل الرزين وهو حذر. لم يكن خائفًا منها بل كان الحرص يدفعه لكى يراقب المكان وفى نفس الوقت يستطيع أن يحافظ على وضع الاتزان. ونظر من جديد إلى حبيبات الشرر الأحمر فى عينيها. وتماما كما توقع واصلت الصراخ وإرسال الشتائم البذيئة. واختارت العبارات الأكثر شهرة والتى يستطيع أى إنسان تخمين معانيها اعتمادًا على حركة الشفاه. واختارت اللغة الإنجليزية وهى ليست لغتها الأم ولا لغة غريمها لكنها أرادت لعباراتها أن تصل بوضوح إلى جميع الحاضرين. وكانت شتائمها مؤلمة جدًا وشديدة الوخز. وكان صراخها عنيفا قويا صاخبا استطاع أن يصل إلى مسافات بعيدة. وعندما نظر الرجل إلى عينيها حدقت فيه بعيون متوعدة وحدقت ثم أمسكت ساعدها بكفها ومدته نحوه وهى تحرك قبضة يدها يمنة ويسرة مظهرة بذاءة نادرة ووقاحة سافرة واستعدادًا خرافيًا للتحدى. وفى تلك اللحظات ضحك كل من جاورها. وضحكت هى حتى بانت نواجذها ثم أعادت حركة اليد التى أمتعتها كثيرًا ثم ضحكت بصوت عال مجلجل. وكان الناس يضحكون معها والبعض كان يقهقه ويمعن فى التهكم.

تجنب بعض المعارك يعد موقفًا حكيما ولا ينتقص من قيمة الإنسان وإن عده البعض خورا وانكسارا. إن خسارتنا لمعركة ما قد تصبح واقعا ملموسا إذا استطاع الطرف الآخر أن يفرض علينا نوع السلاح

المسموح به وقوانين الصراع وأن يحدد لنا ميدان المعركة. وما اعتبره الرجل الرزين انتصارًا، ظنه الآخرون هزيمة. وهنالك خصال جيدة مثل التزام الهدوء وكبح جماح الجوارح وضبط النفس فى حالات الغضب والاستفزاز لكن هى ليست كذلك فى عرف الخلاسية إنما علامات يستدل بها على اقتراب زمن إلحاق الهزيمة الماحقة بالرجل الرزين. ولم تخذلها مشاعرها لذلك شعرت بعظمة الانتصار واحتفلت به حتى أوصلتها الفرحة إلى قمة الانتشاء. وسار على هدى الخلاسية الكثيرون من الحمقى والمتطفلين فمنهم من توخى الحذر فاحتشم فى رد فعله وتبسم ومنهم من ضحك كثيرًا وتهكم وقهقه وسخر من الرجل الرزين.

وواصل الرجل ذو القميص الأبيض مسيرته بخطوات ثابتة. وكان على يقين تام بأنه انتصر. وسيخبر زملاءه بأن الفتاة كانت تتحرك فى مكان عام وكان عليها أن تضبط نفسها وتصرفاتها لا أن تلوم الآخرين وتلزمهم بغض البصر ولا أن تعتدى عليهم. وفى كل الأحوال فإن مهامًا ثقيلة قد تنزلت على كاهل صاحبنا. وأيسر تلك المهام هى أن أصحابه سيحاولون إجباره على الدفاع عن مواقفه السابقة التى غضوا الطرف عنها نظرا لتقديرهم لحسن خلقه وتهذيبه.

عهد

المسافة التى قطعها بين محطة الحافلات والمكان الذى يجلس عليه قصيرة جدًا، ومع ذلك شعر بوطأة الإرهاق وأحس أن أوصاله تكاد أن تتقطع. وعزا الإرهاق الشديد إلى الحقيبة الثقيلة المنتفخة التى كان يحملها على ظهره لكن فى قرارة نفسه كان يدرك أنها محض محاولة لزرع الطمأنينة، لأن الذى يشغله كان أكبر من ذلك بكثير. وخلع الجزمة الأنيقة وضغط على رجليه وأصابعه ثم نظر إلى الجزمة بعين تتمدد أهدابها من فرط الحنق العارم. وأخرج منديله الأبيض الأنيق وجفف به العرق الكثير الذى سال على وجهه وكفيه وقشرة رأسه. وشرب الكثير من الماء راجيًا أن تنجح جهوده فى إطفاء ظمأ نفسه المشتاقة إليها ونار القلق المضطرمة فى جوفه.

رأسه المشحون بالأفكار الكثيرة كان يسنده على كفه العريضة. وكان الرجل يجلس ممدًا رجليه وتاركًا مرفقه لينغرس فى جسد السجادة الصغيرة الأنيقة. وفى الوقت الذى شعر فيه ببعض الراحة جعل يستمع إلى الموسيقى التى يحبها لكن الملفت أن اهتمامه بالكلمات

كان زهيدا فى ذلك الوقت. ولما نظر إلى الشمس العنيدة تأكد له أن الوقت مازال مبكرًا لحضور الناس إلى الشاطئ. وفكر فى الانتظار القاتل لكن تعزى بوصول حبيبته المؤكد. وأكدت له أصوات الطيور والأشجار وحركة الأمواج بأن الحبيبة ستنال الحفاوة الكبيرة التى تستحقها وستبنى لها قصور الرمال الذهبية ولحنها الأثير سيعزفه لها صاحب الكمان الوفى. ولما أمعن النظر فى حركة المد والجذر المنتظمة ظن أن الموج سيساعده فى ترتيب أفكاره وإكمال نظم الحديث الذى سيقوله لها بعد وصولها الوشيك. وبعد أن اطمأن إلى الترتيب الجيد للأشياء استلقى على السجادة واضعًا رأسه على قبضة يده ومتمنيًا من كل دواخله أن يغفو غفوة قصيرة ينعم فيها بحلم جميل.

واستدار وحيد مرات عديدة ذات اليمين وذات الشمال وهو راقد على السجادة ورأسه لا يريد أن يستقر على رأى واحد. وبرغم تصميمه العنيد بأن يخبرها فى ذلك اليوم بكل التفاصيل إلا أنه ظل طوال الوقت ينقح ويعيد ويصقل روايته ثم يردد كلماتها مع نفسه. وفى ذات يوم سابق قالت وفاء لصديقاتها أن حبيبها حولها إلى عاشقة من طراز فريد ووجدت بوحيد وجدًا لامس تخوم الهوس اليومى.

وكان وحيد قد قطع عهدًا على نفسه لكنه كان فى كل مرة يتردد ويمسك لسانه ويترك ذلك الحديث قابعا فى مكمنه. وعلى حسب تقديره فإن المخاطرة كبيرة لذلك فإن الأمر برمته يمكن تأجيله. وفى

اللحظات التى كان يفكر فيها فى مختلف البدائل كانت حبيبته فى بيتها منشرحة تتبسم. وهى لم تك غارقة فى النشوة فحسب بل كانت تمشى فى اتجاه باب غرفتها متبخترة وواثقة من نفسها ثم تعود لتقف بجانب السرير. وفى لحظة ما ذهبت وفتحت الباب من جديد لكنها فجأة آبت واتجهت نحو المرآة.

ونظرت وفاء إلى الكحل الذى كان يزين عينيها الواسعتين الحلوتين ثم أدارت وجهها المستدير الجذاب فى كل الاتجاهات وتبسمت. وعدلت من وضع فستانها الفضفاض وهزت جسمها الممتلئ. وتبسمت مرة أخرى حينما تذكرت إطراء أخواتها والتأكيد ووضع البصمة على اختيارها الموفق للفستان البيج الفاتح والشال والصندل الذهبى والإكسسوارات. وتذكرت كذلك سخريتهن فى السابق من طريقة تعبيرها عن مخاوفها من تأثير الشمس على بشرتها الحنطية وهزلهن الكثير الذى جعلها تتأخر عن المواعيد. وشدت الفتاة فستانها إلى أسفل جسمها لكى تتأكد من أنها مازالت محافظة على وزنها. ومع أنها كانت تعلم أن وحيد يعشق كل ضلع فى حديقتها الغناء، ويحب بدانتها بلا تحفظ، إلا أنها كانت تخشى من الإفراط فى السمنة. وأخيرًا لملمت حاجياتها وأزمعت على الخروج. وهزت جسمها من جديد ولم تنسَ أن تغازل الفتاة التى كانت تواجهها فى المرآة. ولأنها قامت بحركة منفلتة عند هز الجسم فقد وضعت يدها

على فمها حتى تقمع الضحكة الوليدة.

كانت وفاء تصبو إلى أن يسود لقاءهما سلطان المرح وتعربد فيه نسمات الصبابة ولا غرو فهى واثقة من قدرتها على نشر البهجة فى المكان بمن فيه. وهى محبوبة وممراحة وتلازمها ضحكتها العذبة أينما حلت. وهى تحب الرقص كثيرًا وتؤديه بإتقان حين تكون فى وحدتها وتحس عند تلك الساعة بأن فى داخلها تسكن رشاقة الفراشات الجميلات. وفى بيت حبيبها كانت ترقص كذلك رقصًا يسليه لكنه كان يتضجر أحيانًا من إفراطها فى الرقص البطىء ومن جرأتها.

فى مساء اليوم السابق كان وحيد فى البيت مستوحشًا لرفقة وفاء. وشرب كأس الويسكى الأسكتلندى دفعة واحدة ثم وضع الزجاجة فى الثلاجة. وقبل أن يغادر الحمام وقف وثبت رجليه جيدًا ثم نظر بعمق فى المرآة. كان مهموما وهو يفكر فى تفاصيل الحديث الذى سيقوله لعشيقته فى اليوم التالى. وفى لحظة ما شد على قبضة يده واكفهر وجهه كله. وحين ركز بصره لاحظ التجاعيد الكثيرة على وجهه. هو يعلم أنه مازال شابًا فى مقتبل عمره وأن التجاعيد أتته بفعل الغضب الشديد. وتذكر أن والده كان يبشره بأنه سيغدو مثله وأن التجاعيد ستظهر على وجهه فى وقت مبكر. وازداد غضبه وهو يلاحظ الشبه الكبير بينه وبين أبيه خاصة فى الوجه العريض المستطيل والشفاه الغليظة. وفى طريق الرجوع إلى الغرفة أخرج الزجاجة وصب كأسًا

رابعًا وجلس على الأريكة القلقة وهو يشاهد التلفاز.

سلمت عليه ومدت إليه الوردة الحمراء النضرة كنضارة وجهها الجذاب. وكعادتها أتته يرافقها البشر الوفير الخصيب. وأسرته بفخامة حضورها الجليل فظل واقفًا كالطفل مشدوهًا ينظر إليها وهو صامت تمامًا كجلمود أسود. وهو يعلم أن معدنها من ذهب صقلته النار فزادت من تألقه وصلابته. ولما طال وقوفها وضعت الكعكة الألمانية المعسلة على السجادة. وهى نحلة رائعة ألذ من عسل كسا الكعك الذى صنعته خصيصًا له كما حدث أصدقاءه فيما بعد. روحها الشفافة انضر من القمح الشامخ الذى يكسو بشرتها. وحباها وحيد بعبارات ترحيب قصيرة ومرتجفة لكن عينيه أخبرتاها بالكثير المثير. مازحته وأضحكته فاستطاعت فى هنيهة أن تنقله إلى دنيا مختلفة جدًا ورحبة وغنية بالبهجة. وكانت كلماتها منمقة ومنسوجة نسجًا محكمًا كأغنية حبلى بالمعانى اشترك فى تأليفها ملوك الشعر وغنتها الجماهير الطروبة، أما إيقاعها فلا يمكن أبدًا أن يمل منه إنسان لأنه يجدد من قبل الجميع وفى كل حين.

لم يشعر بوقوفها الطويل حتى أتاه احتجاجها وهى تبتسم فهيأ لها سجادة أخرى فجلست عليها. وبعد لحظات شعرت بأنه يتألم نتيجة لاستناده على يده فتزحزحت واقتربت منه لكى تساعده على تغيير وضع جلسته. فى تلك اللحظات انتهز الفرصة لكى يراجع خطته

حتى يأتى حديثه متزنًا ومقنعًا لها وله. وأمعن فى التفكير حتى أوشك أن يبدد حلاوة اللمسات الرقيقة وسحرها. وكان عليه أن يحدثها بتفاصيل حدثت فى لقائه بفاتن لأن الحكمة هى فى الضرب على الحديد وهو حامى.

وظلت وفاء تتحدث أغلب الوقت وهى جذلانة تطرب وتعلو وجهها الابتسامة الساحرة. ألف مرة عبرت له عن عظيم فرحتها بلقائه وعن مقدار توقها إليه. كان جسمها يتحرك كله ويتثنى حين تردد كلمات الشوق. كانت الحلاوة والعذوبة تتسرب من بين ثنايا كل حرف من أحرف كلماتها. وكانت تأسره الدهشة وتلجمه فينسى أن يعدل من وضع جلسته ويزداد شعوره بالألم الكامن فى يده. ولأنها كانت تريد أن تدلق بوحها كله دفعة واحدة فقد زادت فجأة من سرعة كلامها ومن الإكثار من تحريك يديها وعينيها. وفى كل لحظة كان يتوقع فيها أنها ستتوقف، ومن ثم يشرع فى تهيأة نفسه للكلام، يجدها تبدأ الحديث من جديد. ولما عنت له سانحة بدأ سيل الحديث البارع ينساب من جوفه واكتنفته حالة نادرة من الولع المجنون. وحين لم يجد مخرجًا استسلم لحالة الحب وأجل ما نوى عليه فيما يتعلق بلقاء فاتن واستمتع باللحظات النقية وطرب أيما طرب.

ولم يشعر الحبيبان باقتراب مغيب الشمس ولا بلحظة اكتظاظ الشاطئ. وكان حديثها المعسول يغشاه مثل نسمة رقيقة تنزل بردًا

وسلامًا على بشرته السمراء. وربت على ذراعها المخملى الملمس لكى ينبهها إلى وجوب الجد فى العمل لإكمال قصر الرمال. وضحكت وفاء وعاندت حبيبها ولم تعبأ له. وجعلت تغنى وتعزف على صندوق الكبريت. وثبت بصره على كتف لوفاء ناعم كجليد قطنى سقط لتوه على غصون الأشجار. وأغمض عينيه فتأكد أنه لم يك يحلم فحدث نفسه قائلًا:

مترف جدًا وثرى

وشعرت وفاء بحديثه المكتوم فزحزحت جسمها واقتربت منه. واختلط عليه الأمر فغطى ذراعيها بعمامته ثم حدق فى الفراغ لكنها لم تمهله فجذبتها ثم ضمتها إلى صدرها وظلت تعبث بها وتمرر أناملها المترفة على الأطراف المطرزة بالخيوط الذهبية. وبسرعة واضحة استقام واقفًا وذهب ليعمل فى البناء ولم يلهه غناؤها عن العمل بدأب شديد لإكمال القصر. وكان ينظر إليها خلسة كل حين فيتبين عمق العشق المضمخ بالعبير والمضمن فى النظرات الحنونة ورقة الصوت وحلاوة النغمات الناعمات.

لاحظت وفاء أنها تركت حبيبها لفترة طويلة يعمل فى بناء القصر لوحده بينما هى كانت مشغولة بالحديث والغناء فأنبت نفسها وتبسمت ثم أمسكت بيده برفق. وصمت وهو ينظر إليها ويحس بطعم مخضر ناعم كطعم الفرحة بالمولود الأول. وشجعته على الحديث فاستعد

له فهزت رأسها بالمصادقة. ودهش من قدرتها الفائقة على التحفيز وعلى صناعة الدهشة. وأتاه البوح الجديد فاحتفى به. وافتتن بقدرتها الأسطورية بأن تجدد روح حبهما على مدار الساعة. وفى اليوم السابق كانت تهاتفه لكى تذكره بالمواعيد وكانت متحمسة ومنتشية ومراهقة جدًا حين عبرت عن مقدار عشقها له. كان قد عب من الزجاجة لكن لم يك ثملًا فى تلك اللحظات. وصمت لكى يستعيد كل تلك المشاعر الثرية التى اكتسحت صمته. وأطرق ثم قال لها:

أنا فرحان جدًا

بالحب الذى ظل يكبر ويكبر

لا.. أقصد نغم

اعتدلت فى جلستها وانتفضت ورفعت يدها وهمت بتنفيذ ما نوت عليه وتحركت فى اتجاهه. أمسك بيدها وقال لها:

كنت أهزل

ضغطت على أهدابها وعلى مشاعرها ولما هدأت تبسمت فأبصر جنة حسنها تزداد وتكبر. وحدثها بأن حبهما لم تزده الأيام إلا منعة ونضجًا وحلاوة. وتحدث كثيرًا عن الحب وعن مشاريع المستقبل وحين توقف وجدها منتظرة لسماع المزيد. ومن حسن حظه لم تقبض عليه متلبسا لكن دواخله كانت تحذره من زلة اللسان.

مالت الشمس نحو المغيب فاقترب الحبيبان من الماء لكى يغسلا

أياديهما. وفى تلك اللحظات شعر وحيد بأن الفرصة ستضيع منه إذا أصبح يجارى فتاته فى كل شىء. وصمم أن يخبرها بالحديث الذى ظل يضمره بالرغم من أن الأمر قد يفسد عليها لحظات سعادة عظيمة. وأمسك بيدها وغسلها ثم ظل متمسكًا بها. ومرر إبهامه برفق على أناملها المترفة. وبشرته نسمات الغروب بساعة النصر القريبة. وفى تلك الساعة صدق بأنه سيتمكن من أن يهزم نفسه المترددة ويغني الملحمة التى ألفها تخليدًا للنصر.

وناولته الشال فاعتدلت فى وقفتها ثم توجهت نحو المطعم. وظل مشمولًا بالرضا ومستمتعًا بالعطر الشهى ونعومة الشال الذى احتفظ به فى حجره ورعاه كطفل. وهى فى سيرها أحست بصعوبة واضحة فى المشى بفعل وزنها الثقيل وفى منتصف الطريق توقفت واستدارت. كانت تعلم يقينًا بأنه يراقب طريقة مشيها على الرمال وهى مدبرة. وتبسمت وأشارت إليه بسبابتها التى ظلت تتأرجح لعدة ثوانٍ. وضحك كثيرًا حتى اهتز جسمه كله. وضحكت هى للإشارة التى رسمها بيده ثم قهقهت وواصلت مسيرها.

قبل يومين من اللقاء كان على يقين بأنه قد قال لها الحقيقة كلها باستثناء بعض التفاصيل غير المهمة. لكنه عاد فى مساء اليوم التالى وبحث فى التفاصيل لكى يستوثق من درجة تأثيرها على استيعاب حبيبته للحدث وتقييمها للحقائق. وبعد تفكير لام نفسه عن نكوصه

عن العهد الذى قطعاه بألا يكتم أحدهما سرًا عن الآخر. هو يعلم تمام العلم أن ذلك الالتزام قد ألقى بحمله الثقيل على كاهله. وهو يعلم أنه تجاهل الكثير من التفاصيل لأنه لم يفلح وقتها فى صياغتها صياغة تبعده عن الاتهام لذلك أحس بأنه فى ورطة.

لماذا حذفت اسم الفتاة؟

همهم وهو يعاتب نفسه. وأغمض عينيه ووضع عليهما أصابعه كأنه يريد أن يغطى الحقيقة. وعندما صحا أحس بالشىء الواضح أمامه والواقف مثل صخرة كبيرة لا تستطيع أى سفينة أن تتجنب الارتطام بها. وفكر فى صدفة تنقذه منها ثم قبض على يديه كأنه قد عثر أخيرًا على الكنز. وتمطى ونفض يديه ورفعهما عاليًا وأراد أن يحتفل لكنه تراجع سريعًا ثم خمد حماسه كله. واستلقى على ظهره المتعب وأسند عنقه على أصابع يديه المشبوكة.

إن التفاصيل الدقيقة هى التى تصنع الفرق بين الطائرة والنحلة. وفى الظلام الدامس فإن المجرب فقط هو من يستطيع أن يتبين الفرق بين سرب النحل وسرب الطائرات أما الأغبياء فإنهم ينتظرون حتى تنهى الطائرات مهمتها.

حين رجعت وفاء كانت متلهفة للقاء وحيد وتكافح لكى تزيد من سرعتها. وكانت متحفزة لكى تحكى لحبيبها كل ما شاهدته فى رحلتها. كانت تريد أن تحدثه عن طرائق جلوس المحبين على الشاطئ

وسذاجة بعضهم ومشاجرات سائقى الحافلات إضافة إلى الأطفال الرائعين اللعوبين وأحلامهم النقية وأحاديثهم البريئة. ولاحظ وحيد البهاء الجديد الذى صاحبها والعيون التى ازدادت سحرًا وحلاوة. وعندما أمسك بطرف الحديث ظلت تنظر إليه بشفاه مرتعشة وتحرك شعرها وتداعبه. وانحنى لكى يرفع الوردة الحمراء الملقاة على السجادة ويداعبها. وحين شرع فى الحديث أحس بأنها كانت تراقبه بانتباه وبلا مقاطعة. كلاهما كان يريد أن يسمع المزيد. وبرغم المشاكسات القليلة فإن مشاعر الاحترام بينهما والهيبة العظيمة لم تتغير. وأحس بأنها كائن شفاف رائع يغدو ويروح فوق الحدائق الغناء وينشر الفرح وأحيانا يلامس أطراف السحاب. وقال لنفسه:

جبان أنت. لكن المنصف من يقول إن ليس لديك خيارات كثيرة، فاستمتع إذن باللحظة

رأسه المثقل بهموم القرار المؤجل جعل يهتز بحذر. وعندما فطن إلى حاله أراد أن يستعيد الرزانة لكن اللهفة قادته لكى يتعجل فى أمره. وكانت شفتاه الغليظتين تتحركان بسرعة فعاجلها بالقول:

أحبك أحبك يا وفاء

وكانت فى تلك اللحظات تشرب عصير البرتقال وتنظر إليه بطرف عينيها وهى متلهفة لسماع المزيد. وسمعت موسيقى بائع الآيس كريم تأتى من بعيد فتفاعلت معها. وارتجلت رقصة ما ولم تتقيد كثيرًا

بالإيقاع والموسيقى. وأحيانا كانت تطقطق بأصابعها لكى يستقيم الإيقاع مع رقصها. ومع أن مرحها زين المكان وأضفى عليه روحًا جميلة إلا أن وحيد أحس بأن الوقت مناسب لكى يحدثها بما اعتزم. وهيأها للأمر فلخص لها ما ذكره فى الأيام الماضية لكنها قاطعته قائلة:

قلت هذا الكلام من قبل

نعم لكنى أريد أن أذكرك

لم أنس. لا تفسد على الرقص وأذكر الجديد

الأمر هو

ولم يقدر على إكمال الجملة لأنه أدرك أنه ربما يدخل فى المسار الخاطئ فاعتذر لها. ولما أسهب فى الاعتذار والثرثرة جعلت تومئ برأسها وتوافقه على كل شيء ثم واصلت الرقص.

ليس كل ما نخفيه هو شيء ممهور بختم يدل على أنه سر يجب الكشف عنه يوما ما. وأحيانًا قد تذكر الوقائع بعيدًا عن السياق الذى حدثت فيه فتكون النتائج غير عادلة. وقد يكون تغاضينا عن الأشياء الصغيرة محمدة نجنى ثمارها المفيدة ولو بعد حين. والحبيبة تضجرت وكتمت ذلك الشعور لكن صبرها لم ينفذ وربما فعلت ذلك لحكمة تعلمها هى. لكن على أي حال فإن الوقت المتبقى لم يسمح للحبيبين بقول الكثير.

ذهبا معًا إلى موقف الحافلات. كان يفكر كثيرًا وكان يؤمن بأن

صفحة ما قد طويت وأن الغد سيشهد مولد صفحة بيضاء جديدة. وكانت وفاء تسير وهى قريبة جدًا منه وتمسك بيده وتوجه مسيره ولم تحرر يده حتى صعدت إلى الحافلة. ولم تتحدث كثيرًا لكنها ودعته بحرارة ومرح ومحبة بينة المعالم. وبعد مضى لحظات أمسك الجوال وضغط على أيقونة الاتصال لكنه تراجع. ويمم وجهه شطر الشاطئ.

وفى وقت لاحق سيكون وحيد بمفرده وسيفكر جيدًا فى كل الاحتمالات. وربما سيساعده الهدوء والصدق وصفاء الذهن على الوصول إلى نفس القناعة السابقة وهى أن وفاء ستسامحه إن أخبرها بكل التفاصيل. لكن فى كل الأحوال لا ممدوحة من أخذ الأمور بروية وحكمة.

تواصل

نظر المرشح المهندم إلى البعد ولما اطمأن إلى انتباه صاحبه ثبت طرفا سبابتيه على بعضهما البعض ورفعهما أمام عينيه المفتوحتين باتساع. وقام الرجل برسم دائرة فى الهواء ثم رسم بسبابته اليمنى خطا اخترق الدائرة ثم نفذ من الجانب الآخر. وكان طوال الوقت مركزًا بصره على وجه صديقه الواقف على البعد عند زاوية الشارع. وأحكم المرشح من قبضته وضغط جيدًا على حقيبة المستندات البلاستيكية وانتظر الرد.

وغير أزرق صديق المرشح من طريقة وقوفه ووضع يده على الحائط القصير. وفى تلك الأثناء زال التوتر من وجهه العريض فتبسم فى وجه صاحبه. وفى تلك اللحظة تأكد للمرشح أن الجزء الأول من الرسالة قد وصل. ونقر المرشح توًا بسبابته اليمنى نقرات سريعة فى الهواء. وكانت النقرات الأخيرة تشير إلى اتجاه اليسار. وكانت حركة النقر واضحة جدًا حتى ظن أزرق والواقفون إلى جواره أن صاحبهم كان يضرب على التمثال الحجرى الذى ظل يقف صامدًا منتصبًا على الجهة اليسرى.

كان المكان مكتظًا بالناس الواقفين والمتحركين والدراجات ومحتشدًا جدًا بالضوضاء. أصوات الموسيقى ونداءات بائعى الخضار وهدير مولدات الكهرباء كلها لم تنجح فى التشويش على أزرق الذى لم يغب عن أنظار صديقه المتلهف لحظة واحدة. ولأن المرشح كان يقف على قاعدة التمثال المرتفعة عن الأرض فقد سهلت عليه مهمة المراقبة. ولم يفهم أزرق مغزى الرسالة فأعاد المرشح رسم العلامات نفسها مرة ومرات أخر. وفى لحظة ما علت وجه المرشح ابتسامة مشبعة بالرضا فقام بهز رأسه معلنا الموافقة. وأطرق أزرق مليًا ثم حرك رأسه بسرعة ذات اليمين وذات اليسار. ووصلت الإشارة بينة كشعاع برق أبيض انسل فى ليل بهيم من بين طيات السحاب. وتيقن صاحبنا الآخر فى تلك اللحظة من أنه لن يستطيع بسهولة أن يحصل على الأشياء التى طلبها.

عدل المرشح من ربطة عنقه الأنيقة وأصبح يدخل يديه فى جيوبه ويخرجها بسرعة فيعود ليفتش الحقيبة بقلق شديد ثم يجول ببصره حول المكان ثم ينظر مليًا إلى النقطة التى كان يقف عليها صاحبه ثم يعود فينظر إلى الاتجاه الذي ينظر إليه الناس ويتوقعون أن يصل البص فى أى لحظة. والمرشح يعلم تمام العلم أن الوقت عدوه الأول فى تلك الأثناء وفى نفس الوقت كانت كل مشاعره تدرك بأنه مسئول مسئولية مباشرة عن عدم إيصال الرسالة. ومهما قدم من تفسيرات فيما بعد فإن

نتائج ما أقدم عليه، وإن كان قد فعل ذلك بحسن نية، فهى لن تصبح مؤهلة لكى تحميه من النقد واللوم الشديدين.

أعاد المرشح رسم الإشارات تارة أخرى. وفى هذه المرة اكفهر وجهه عندما اضطره الظرف لكى ينقر كثيرًا على الحائط الافتراضى حتى حسب الناس أن أصبعه قد أصبح يؤلمه بشدة. ومن جديد كرر صاحبه هز الرأس بالنفى. وكرر المرشح وانتظر لمدة تربو قليلًا على دقيقتين، وحين لم يجد جوابًا شافيًا، مد يده المبسوطة وأمال رأسه المتحرك بانسجام مع حركة اليد وهو يكثر من الابتسام ويتضرع باستمرار. وعند هذا الحد أخرج أزرق هاتفه الجوال فأدار الرقم ثم انتظر الرد. ولم يتحرك المرشح ولم يحاول البحث عن الجوال فى جيبه أو فى الحقيبة بل هز رأسه وحرك سبابته مشيرًا إلى عدم قدرته على الرد. وحين يئس أزرق أنهى المكالمة فأدخل الجوال فى جيبه ثم نفض يده إلى أسفل وهو يشتط غضبًا.

لم يقطع أزرق حبل الأمل فى معاودة صديقه للمحاولة. وظل الرجل قوى العزيمة ومتمسكًا بصبر نادر ومثابرة وإصرار عنيد على التواصل رغم التحديات الكثيرة. أما المرشح فقد احتفظ بابتسامته الصادقة وهيأ كل مشاعره لكى يبدأ من جديد. وكان يعلم أن المحاولة قد تكون الأخيرة لأن صديقه كان ينتظر البص وقد اقترب الموعد كثيرًا.

قبل أن يتحرك المرشح من منزله وضع حقيبة المستندات الأنيقة على المنضدة وأفرغ جميع الأشياء على السرير ثم أعاد وضعها داخل الحقيبة بعد أن تأكد له أن أوراقه مكتملة. وكان يضع السيرة الذاتية ونسخة من خطاب الدعوة التى أرسلت له بالبريد الإلكترونى فى جيب، وترك الأوسط فارغًا، وفى الجيب الأخير وضع جميع شهاداته الأكاديمية والمهنية وورقة تحوى أسماء وعناوين الأشخاص الذين يأمل أن يزكوه إذا طلب منه ذلك. أما تفاصيل حسابه البنكى فقد وضعها فى الجيب الصغير فى المقدمة. وقبل أن يقلق الحقيبة أخرج نسخة من رسالة البريد الإلكترونى وأمسكها بيده ثم ضرب على أزرار هاتفه الجوال وانتظر. وكان متلهفًا جدًا لكن لم يرد عليه أحد. وأعاد المحاولة عدة مرات ولما يئس حمل الحقيبة والورقة والهاتف الجوال فوضعها على منضدة الصالون ثم هرع سريعًا إلى المرحاض.

حين عاد إلى الصالون شعر المرشح بأن عليه أن يسرع فى الخروج حتى لا يتأخر على المقابلة. ولبس بدلته الأنيقة ووضع فى جيبها بعض الأشياء واستوثق من حسن هندامه وخطف الحقيبة الجلدية خطفًا ثم خرج مغادرًا. ولأنه كان يعول كثيرًا على المكالمة القصيرة التى أجراها فى اليوم السابق مع موظفة العلاقات العامة والتى رفدته بشلال من الآمال الكبيرة وجعلته يؤمن إيمانا عميقا بكسب الوظيفة، فقد ركز جل جهوده فى تدريب نفسه على كيفيه تفادى مواضع الزلل والأسئلة

الماكرة.

وفى البص كان صديقه أزرق يجلس بجواره لكنه تجنب الحديث معه وأصبح طوال الوقت يحدق فى الفراغ ومنهمكًا فى ترديد الأجوبة النموذجية فى سره. وكان هنالك سؤال عثر عليه فى الليلة السابقة إبان بحثه فى مواقع الإنترنت وظل يقلق مضاجعه باستمرار وهو سؤال يدور حول رأيه فى مسألة شرب موظف للخمر فى الأمسية التى تسبق يوم دوام رسمى. وبالرغم من إيمانه الراسخ بأنه يمتلك الرد المناسب على ذلك السؤال إلا أنه كان قلقًا من أن تؤدى الإجابة إلى تفريخ أسئلة أخرى.

نزل المرشح من البص وعلى الفور حث الخطى حثًا لكيلا يتأخر عن الموعد. وبعد دقائق التفت لكى يلقى كلمات وداع واعتذار لكن صديقه اختفى فى زحمة السوق. ولما وصل المرشح إلى قارعة الطريق الذى يقع فيه مبنى الشركة تنفس الصعداء لكن فرحته لم تدم طويلًا، إذ تأكد له بعد أن أنهك التعب مفاصله أن الشارع طويل كطول غابة الصنوبر المجاورة، وأن المسافة التى تفصل بين النقطة التى يقف عليها وموقع الشركة بعيدة جدًا. وهى مسافة بعيدة للدرجة التى تجعل أى فعل يقوم به هو نوع من العبث المحض أو الاستهزاء بالآخرين أو تبديد الوقت والجهد سواء كان ذلك بالإسراع فى المشى أو محاولة الجرى أو ركوب الدراجة. والحقيقة المرة التى علمها هى أن نهاية

الشارع تقع فى المدينة المجاورة.

هنالك أناس لا يعرفون المستحيل ويبذلون الغالى والنفيس فى سبيل تحقيق الإنجاز المرتجى. والمرشح يعتقد أنه مثال صادق لهؤلاء الناس. والإيمان العميق يدفع صاحبه إلى التضحية الصادقة وإلى إعدام كلمة مستحيل من القواميس كلها. وفى لحظة ما فكر الرجل فى استغلال عربة أجرة لكنه اكتشف أن تلك المحاولة لن تنجى المقابلة من الفشل لأن الوقت المتبقى قليل جدًا. وكان لزامًا عليه أن يتصل فاكتشف أنه قد نسى هاتفه الجوال فى البيت فقرر أن يعود أدراجه لكى يعتذر للشركة قبل فوات الأوان ومن ثم يحدد موعدًا آخر. ولما رأى صديقه أزرق يقف عند محطة البص فى الناحية الأخرى من الشارع العريض انفرجت أساريره وجعل يتواصل معه بالإشارات.

ظل بال المرشح مشغولا بأمر الحصول على مساعدة من صديقه ليعطيه الهاتف الجوال. وكان أحيانا يحول بصره بعيدا عن أزرق ويراقب الذاهبين إلى السوق والذين يصف بعضهم بالمتسكعين والمستهترين بوقتهم، لذلك لم يعرهم أدنى اهتمام. وكان يعلم أن التأخير يعنى عدم قبول اعتذاره وبالتالى فقدان الفرصة إلى الأبد. وهو يعلم أن احترام المواعيد أمر مقدس فى ذلك البلد الأوروبى وأن إلغاء معاينة العمل يجب أن يبلغ عنه قبل وقت كافٍ وفى حالة التأخير فإن النهاية غير السارة أمر لا مفر منه.

إن التواصل الناجح هو الذى يتم بعد التأكد من الاتفاق حول دلالات ومعانى الألفاظ والرموز المستخدمة. وأن الكثير من الرموز والإشارات أصبحت عالمية ومع ذلك فإن مستخدميها يسعون أولا إلى التوافق حول معانيها وسياقات الاستخدام. وإذا عمد أحد الطرفين إلى إهمال مبدأ ما من مبادئ التواصل الفعال فإن المحصلة النهائية قد تؤول إلى الصفر.

وقد تحدث مفاجأة ما تمكن المرشح من الاهتداء إلى طريقة للتواصل مع الشركة رغم ضالة الاحتمال. والثابت هو أن العلاقة بين الرجلين متينة جدًا وأنهما يفهمان بعضهما البعض فهما عميقا لا مراء فيه. وبرغم كل هذه الحقائق فقد فشلت تلك الجولة من التواصل بينهما. وكان بإمكانه استعارة هاتف أحد المارة على الرغم من موقفه السالب تجاه بعضهم.

كرسى

عب الرجل آخر جرعة من الكأس فحرك جثته الضخمة حتى اطمأن إلى الوضع الذى تعود دائمًا أن يركن إليه ثم أفرد راحة يده الموضوعة على الأخرى استعدادًا للبوح الليلى الذى ألفته صاحبته جيدًا. وتذكر أن يسوى وضع الملاءة المخملية الموضوعة على جسمها الناعم. وقبل أن تخرج العبارة الأولى من فمه ضغط على كتف الأريكة مرة ومرة أخرى فداعبها مداعبة ملطفة ثم مسح على كرشه المترهلة عدة مرات ثم زحزح فخذيه حتى انسحب جسمه إلى أسفل. وبعد أن أتم الطقوس شرع فورًا فى الحديث المشوب بالتوتر.

رفعت المرأة الثلاثينية الأنيقة الرشيقة كرسى الاعتراف من الأرض وتفحصت المكان تحته فنفضت الغبار عنه ثم ثبتته جيدًا فى مكانه. وقبل أن تجلس على الكرسى أدارت رأسها ببطء فى اتجاه اليمين ثم فى اتجاه اليسار ثم إلى السقف. وسحبت أطراف ثوبها المتهدلة وحشرتها بين فخذيها ثم ضغطت عليها بقبضتى يديها بقوة. وحين همت بحديث ولد من رحم التردد الطويل رفعت قبضتى يديها عموديا وقربتهما إلى

بعض ثم هزتهما هزات خفيفة متكررة

سكنت الشابة الأنيقة بعد أن كانت شفتاها منهمكتين فى ترديد حديث هامس. وفى تلك اللحظة أحست بأن الرجل اقترب كثيرا منها واستعد تمامًا لسماع صوتها. وعندما أصبحت على شفا نقطة الاعتراف اهتزت يداها ورجلاها بوتيرة عالية فجذبت نفسا عميقا وكررت عملية التنفس عدة مرات وهى مطرقة. وأخيرا أغمضت عينيها الحلوتين الجذابتين فهدأت فشرعت توجه حديثها إلى الرجل قائلة.

فى تلك اللحظات لم أكن مهيأة لما كان يضمره فى صدره لكنه باغتنى ومد يده ووضعها فى ذلك المكان من جسمى، ذلك المكان الحساس. وقبل ذلك بثوان قليلة كنت على وشك أن أبوح له بشىء مفرح يخص علاقتنا السامية لكننى آثرت الصمت حين شعرت بيده تصل إلى مبتغاها. ولأنى أحبه حبا جما فقد وددت ألا أثير غضبه فى ذلك الحين. وكان قلبى ينتفض بقوة وصدرى يعلو وينخفض كرأس المخبول وكانت رجلاى ترتجفان وتتخبطان. وسرعان ما ادرك حبيبى تفاصيل الموقف المحرج فتدارك امره فاقلع عن فعلته. والحق يقال، اننى احبه حبا يفوق كل تصور. وفى اوقات اخرى كانت كل ذرة من جسمى تشتهيه

وسارع حبيبى واعتذر لى بعبارات لطيفة وحنونة. وكان وجهه

منقبضا وهو يمد يديه المرتجفتين ويمسك براسى ويقبل جبينى ويعتذر مرة اخرى ومرات ومرات. كان وجهه منقبضًا حين قال إنه أخطأ التقدير وطلب منى بإلحاح أن أصفح عنه. وكنت على يقين تام بأنه كان صادقا فى كل كلمة نطق بها. وكنت أدرك عمق حبه لى وهيامه الدائم وجنونه بى لذلك سامحته. ولأننى خشيت عليه من غضب الإله فقد طلبت منه أن يستغفر. وبذلت جهدى كله لتغيير موقفه الرافض للجوء إلى الرب لكنه ظل ممتنعا عن كل فكرة تقوده إليه. ولأنى أخشى كثيرًا أن تصيبه اللعنة يا أبى فقد جئت إليك لكى تطلب له الصفح والرحمة. وأرجو منك يا أبى أن تصلى من أجله كثيرًا وأن تلتمس له الهداية وأن تبعث بركاتك إليه.

صمتت وسكنت وأحست بأن فترة السكون طالت فتململت لكن أخيرا وصلها صوت الرجل الرزين ذى النغمة الثابتة المتزنة وجعل ينفحها بحالة مميزة من الطمأنينة. وشعرت بأن الصوت ينساب إليها من جميع الاتجاهات وشعرت بدفئه الملائكى ولذته اللامتناهية. ووثقت من وعد الكاهن لها بالتضامن والدعاء لها ولحبيبها. وتنزل الكاهن إلى حجرتها وغطاها حضوره كنور سماوى بهيج واقتربت جثته الرقيقة منها يحيط بها الهدوء ومد يده العطوفة ووضع كفه على رأسها ثم مسح برفق مسحات لينات على شعرها البنى الناعم. وكرر الكاهن سلوكه سبع مرات ثم قال لها:

فليبارك الرب ويغفر لكما.

ظلت الفتاة ساكنة تمامًا وهى تركز بصرها على الأرض إلى أن سمعت صوت أقدام رجل الدين وهو يخطو مبتعدًا عنها.

اعتدلت المرأة الجميلة واقفة وعدلت هندامها ثم حملت حقيبتها الكلاسيكية وغادرت الغرفة. وكانت ترافقها النشوة العارمة وزهو الانتصار والتلهف لإبلاغ حبيبها بالإنجاز العظيم. وعندما ابتعدت عدة خطوات عن البوابة الرئيسية سمعت بحركة كرسى الاعتراف الذى كان يسرع الخطا لكى يقترب منها. وحين توقفت واندهشت واستدارت نحوه ألح عليها أن تجلس عليه حتى يتمكن من إيصالها إلى حيث تريد. ووافقت بلا تردد فحملها إلى مكان الحفل. وحين ترجلت انتظر فى مكانه برغم همسها المتكرر فى أذنه وإيصال اعتراضها الواضح على ذلك. وحدثها الكرسى أنه يؤمن بأنه لا يؤدى إلا جزءًا يسيرًا من واجبه الدينى.

رقصت الفتاة الرشيقة رقصة التانجو الشهيرة وأدتها كأنها راقصة محترفة ونسيت قلقها على حبيبها الذى كان فى البيت يتململ فى سريره. وعندما اشتد دأب الفتاة المعترفة سرت العدوى فى المكان وعمت وازدادت حمى الرقص وشملت جميع الحاضرين حتى أصبحت كل الكراسى فارغة. وكان صاحب الأريكة قد حضر لتوه ووقف بعيدًا عن الجمهور مكفهر الوجه وهو يحرك رأسه ببطء فى كل الاتجاهات

لكى يتفحص المكان بدقة. وكان وجه الرجل يتوقف عند كل كرسى لكى يحصى عدد العيوب الكامنة فيه ويقدر مدى خطورتها.

الرجل صاحب الأريكة تعود أن يصرح علنًا بمقته الكثير لكل الكراسى فى الدنيا لأنها فى نظره متزلفة جدًا ودنيئة. وفى مكان العمل استجاب الجميع لرغبته ووفروا له مقعدًا خشبيًا لكى يجلس عليه. وفى رأيه أن الرئيس هو الشخص الوحيد المخلص للكرسى الذى يجلس عليه. وفى لحظة ما سحب نفسه ببطء واقترب وركز بصره عدة مرات على كرسى الاعتراف لكى يفحصه جيدًا لأنه يعتبر فى نظره رأس النفاق لأن مهمته الرئيسية هى التجسس. وأصبح الغيظ الكبير يتملك الرجل فصرخ قائلًا:

منحط.. منحط

كان ينطق الكلمة بصوت عالٍ جدًا وعنيفٍ. وفى لحظة ما خشى أن يسمعه أحد الواقفين فتوقف

ارتجلت المرأة الرشيقة رقصة معدلة من التانجو فاشتد دأب الناس فى الرقص وسيطرت عليهم النشوة المجنونة. وزاد الصخب والهتاف وحميت الأضواء الحمراء والوهج المعربد وتأججت حرارة المكان واستحث الجميع على الحركة الكثيرة. ومد الكاهن يده وأمسك بكف الفتاة الرشيقة ولثمها ورقص معها بطريقة مثيرة للخيال الجامح وعم الهتاف وزاد صراخ البهجة. وأحست المرأة بدفء مميز سرى إليها من

يد الكاهن وزاد حماس الناس حولها ونمت شهواتهم. وتقدم السفير بحذر وحرص شديدين واستأذن بأدب لكى يسمح له الرئيس بالرقص مع زوجته الأنيقة. وكانت زوجة الرئيس أثناء الرقص تدير رأسها باستمرار ذات اليمين وذات الشمال. وكانت الفتاة الرشيقة تلوح إلى كرسى الاعتراف بيدها وتغمز له مداعبة وهى تعلم فى قرارة نفسها بأنها لن تعود إليه أبدًا.

تراجع الرئيس ثم سار حتى وقف على بعد قريب من المسرح ووقف إلى جواره المساعدون والحاشية وهم يصفقون ويتمايلون مع الموسيقى وأعينهم مفتوحة واسعة. وكان الرئيس يتبسم باستمرار رغم أنه يعلم أن معظم الذين يؤيدون رقص زوجته مع رجل غريب إنما هم منافقون. ومع إدراكه الجيد للموقف إلا أنه كان يعلم علم اليقين بأن كل رجال الدين سينهمكون منذ لحظة سماعهم للخبر فى صياغة التبريرات المناسبة. وحين بلغت حمى الرقص مداها وقف كرسى الاعتراف وصرخ عاليًا ثم وضع إصبعيه بين شفتيه وأطلق تصفيرًا مدويًا ومثيرًا. وسارت على نفس النهج كل الكراسى حتى أصبح الأمر مدعاة للبهجة والدعابة والمزاح بين الحضور.

انتهز كرسى الرئاسة الفرصة فانسحب ووقف بجوار الرئيس ثم استدار حوله حتى اطمأن إلى انشغال الجميع فلكز رئيسه لكزة لم يقدر معها الرجل على إخفاء تأثره العميق وشعوره بالحرج. واستدار

الرئيس حوله فأمسك بيدى الكرسى وضغط عليهما بقوة مجنونة وعنف مفرط حتى ظهرت علامات الألم على وجه الكرسى المسكين. وحين تأكد للرئيس نجاح العقوبة ربت على كتف كرسيه وساعده لكى يستقيم واقفًا. ونظر الرئيس إلى البعد فوجد أن صاحب الأريكة كان يراقبه.

عندما كان كرسى الرئاسة يستمتع بالحفل مع بقية أقرانه، كان يدرك كذلك أن الرئيس سيعاقبه مرة أخرى. لكن الأمر المؤكد لديه هو أن الرئيس، أو أى حاكم، وفى كل حال من الأحوال لن يجرؤ على معاقبة كرسيه بالنفى إلى دولة أخرى أو بالإعدام. وهو يعلم أن الحال سيصفو لا محالة وسيعود الرئيس إلى عادة المزاح معه وسيكشف له من الخفايا ما لم يستطع أن يكشفه إلى المقربين منه بمن فيهم زوجته اللعوبة.

أدام الرئيس نظرته الغاضبة إلى صاحب الأريكة لكن الرجل كان يخطف النظرات خطفًا ثم يغض بصره ويطأطئ رأسه. وسكن الرجل تمامًا حين توقف الرئيس عن مراقبته وانتظر إلى أن وجد الفرصة المواتية فتسلل بهدوء الخائف واختفى. وفى الخارج كان يخب فى سيره وهو يكرر فى صدره حديثه الذى سيوضح فيه للمحققين مبرراته كلها. وأزمع أن يكتب على ورقة تفاصيل دقيقة تبين أنه دخل إلى مكان الاحتفال صدفة وأنها كانت المرة الأولى التى يرى فيها

الكرسى الرئاسى بأم عينيه.

اعتدل الرجل فى جلسته ونفض عن رأسه الأفكار الكثيرة والهواجس وتبسم بصعوبة وهو يحاول طرد آثار الخوف والكرب والشجن من صدره. ووضع يده على كتف الأريكة من جديد وحرك أصابعه وهو ينظر إلى عينيها. كانت فى تمام اليقظة على الرغم من أن كل الأحياء والجمادات فى تلك المدينة كانت تنعم بنوم عميق. وفجأة انقطع إرسال التلفاز وأطفأت الأنوار كلها. وحين أضيء المكان تمكن الرجل من تبديد الخوف وهم بالكلام أدرك بأن عليه أن يتحدث بسرعة وباختصار شديد فقال:

أنا لا أحب الجلوس على الكراسى، تعرفين هذا الموقف جيدًا، وهو موقف معلن ويعرفه الجميع، وسأظل مستمسكًا به طيلة حياتى ولن استثنى أى كرسى حتى لو مورست على ضغوط العالم كلها. أنا حر فى أن أجلس على مقعد أو على أريكة أو أن أظل واقفًا طيلة عمرى. والذين يعلنون حبهم للكراسى هم أناس مخادعون منافقون لأنهم يخشون أن يصفهم الآخرون بالجبن. والفتاة الرشيقة كانت كذلك تمارس النفاق الصرف حين قالت إنها مولعة بحبيبها إلى حد التطرف. وهى كانت تريد مجرد الحصول على المبررات الكافية حتى تتمكن من الزواج منه.

الذين يجلسون على الكراسى أثناء الحفلات إنما هم مراؤون

يداهنون الآخرين لأن الاحتفال هدفه الرقص والتصفيق والهتاف لا الجلوس على الكراسى ومراقبة الراقصين. وفى الحفلات يكثر الثرثارون الخبثاء والوشاة المأجورون والنمامون والمتطفلون على حياة الآخرين. وليعلم الجميع بأن الصدفة المحضة هى التى حملتنى إلى مكان الحفل وجعلتنى أشاهد لكزة الرئيس التى نفذها كرسيه ببراعة نادرة.

مرة أخرى أطفأت الأنوار كلها واختفت الأريكة ثم تلتها الأشياء الأخرى التى كانت على الصالون. ووجد الرجل نفسه عالقًا فى الهواء فى نقطة ما بين السماء والأرض. ومد يده حوله فلم يجد غير الفراغ العريض والسكون المخيف. وجاء رجال كالأشباح وأجلسوه على كرسى عتيق وثبتوه بإحكام حتى شعر بأن الجزء الأسفل من جسمه ملتصق تمامًا بالكرسى. وحين أضيئت الأنوار الساطعة فتح عينيه ببطء فوجد حوله رجال الإعدام وخلفهم الفراغ الواسع الرهيب، فراغ خلفه فراغ. وطلب منه الرجال أن يفصح عن رغبته الأخيرة فقال:

هل لى بأن أطلع على صحيفة الاتهام
بالطبع لا يمكن فقد فات الأوان
وإعادة المحاكمة والاستئناف؟

كذلك فات الأوان لأن الحكم مؤيد من قبل المحكمة العليا

ومصدق عليه بواسطة الرئيس وكبار العلماء ورجال الدين.

وتركوه لكى يفكر. وكانت شفتاه فى تلك الدقائق تتحركان بوتيرة عالية وتتمتمان بحديث وجل وعضلات جسمة كلها ترتجف. وانتهز كرسى الإعدام الفرصة لكى يقرب شفتيه من أذنى الرجل ويهمس له بحديث ما ثم يقهقه. وقهقه الكرسى مرة ومرة أخرى حتى اهتزت كل أضلعه. وحين سكن الكرسى أنشأ الرجل يفكر فى حاله ورسخ فى ذهنه أن الرئيس بالتأكيد هو من أوعز بالمحاكمة الغيابية. وأدار الفكرة فى رأسه لكنه سرعان ما دفع بها خلف طيات دماغه لأن الرئيس فى نظره لا يمكن أن يقف ضد شخص ينأى بنفسه عن كل الكراسى بما فيها كرسى الرئاسة، إلا إذا كان ساديًا. وكذلك استبعد أن يكون السبب هو غضب الرئيس من مشاهدته للكزة لأن هذه العادة معروفة لدى الجميع. ولما عجز عن حل اللغز طلب من الرجال أن يحضروا له فتاة إثيوبية حسناء لكى تصنع له قهوة بالطريقة التقليدية فى بلادها.

وكانت لحظات صنع القهوة وشربها من أمتع اللحظات التى مر بها فى حياته إذ تمكن من أن يستنشق رائحة البن الإثيوبى عن قرب. وحين أمسك بفنجان القهوة المتبل كان ينتظر كلمات الفتاة السمراء الفاتنة. ولما نطقت وصلت إليه عباراتها مسبوقة بابتسامة الشيكولاتة الرائعة المضاءة بألق ساحر كالبلور يخرج من فمها العذب. وحين وضع الفنجان تيقن بألا مفر من الرضا بأمر لا محالة واقع. وحدث

نفسه قائلًا:

كان الرئيس يرغب فى كرسى مميز فعثر على أخبثها فأصبح له نقمة وكنت أرغب عن كل الكراسى فعثرت على أرذلها فأصبح لى نعمة.

أشار بسبابته اليسرى وحدد لهم المكان فى يده الذى ألف أن تلج فيه الحقنة إلى داخل جسمه. وأكد لهم أكثر من مرة بأنه لا يريد أن يتعذب فى اللحظات الأخيرة من عمره. وكان كرسى الإعدام صامتًا فى تلك اللحظات. وهذا الكرسى متعود على مختلف أنواع البشر فمنهم الجبان والمحايد والشجاع والأحمق والمطيع والعنيد والأبله لكن الرجل صاحب الأريكة حيرة حيرة ستبقى فى ذهنه مدى الدهر. وحين أغمض عينيه تذكر الرجل بأنه كان يتمنى أن تحرق جثته ويذر رمادها فى مكان ما يقع على بعد شاسع من الأرض حتى لا يتبقى له ارتباط بأهلها. والرجل كان يعلم أنها رغبة سوف لن يجد الفرصة لكى يبوح بها.

أم أيمن

منذ أن تمكن المجذوب من إقناعها بالالتزام بالمبادئ التى يؤمن بها وارتداء الملابس الدينية، شعر بأن حبه لها ظل ينمو ويتطور وفى كل يوم كان الحب يكبر ويشتد ساعده. وفوق كل ذلك أصبح مشغولًا بها باستمرار ويكثر من تدليلها وينفذ لها كل رغباتها. وحين طلبت منه فى ذلك اليوم أن يرافقها إلى عرض الباليه الذى تحبه وافق بلا تردد على الرغم من موقفه المبدئي الرافض لمثل هذه الفنون. واشترى المجذوب ست تذاكر وحجز ثلاثة مقاعد لنفسه ومثلها لزوجته.

أدار الرجل محرك السيارة ثم التفت نحو زوجته التى كانت مشغولة بهاتفها الجوال. وقبل أن تتحرك السيارة كان مسكونًا بمشاعر الفخر ومشمولًا بالرضا لأن زوجته أكدت له أنها ستستمتع بالعرض الذى طال انتظارها له. ومهما حدث له بعد ذلك فإنه سيجد له مبررًا أمام أصدقائه. وكعادته سيثرثر كثيرًا حتى يفقد أصدقاءه القدرة على التركيز على التفاصيل المهمة.

خضراء شابة اقتربت من الثلاثين لكنها ما زالت عفريتة، هكذا

ظل يقول زوجها. وهى حلوة جدًا ومازالت تحتفظ بالجمال الذى وصفه المجذوب قبل عشر سنوات. وقد تزوجا منذ خمس سنوات بعد علاقة قصيرة. وظل المجذوب يدعي بأنها استطاعت أن تحوله من رجل خمسيني ضجر إلى شاب صغير جدًا مفعم بالحيوية ومشاغب فى معظم الأحيان.

ازدهار تجارة المجذوب وتوسعها يعود إلى عوامل يعرفها أصدقاؤه جيدًا لكنه ظل يدعى أن السبب هو بركة تنزلت عليه بعد الزواج. وكان يقول إن خضراء خصبة مثل اسمها وثرة ومدهشة كبشرتها الذهبية ومميزة في كل شيء. وذات يوم طلبت منه أن يناديها باسم أم أيمن فوافق بلا تردد.

قبل أن يترجل المجذوب من السيارة قبل يدى أم أيمن وساعديها ثم أثنى على العسل الوضاء الرابض في عينيها. وفتح لها الباب وأمسك بيدها وألصق كتفه بكتفها الطرى وتحدثا حديثًا قصيرًا لا أهمية له وضحكا معًا حتى دخلا إلى صالة العرض. وفي البدء كان الرجل مترددًا لكنه بعد لأى حسم أمره وجلس على المقعد الأوسط أمام زوجته مباشرة ثم أدار جسمه كله حتى قرب وجهه منها فصار على بعد سنتيمترات قليلة من عينيها.

هو يعلم أنه لن يستطيع أن يتمتع بالنظر إلى عينيها الجميلتين الساحرتين لأنها كانت تلبس نظارات شمسية داكنة. وهو بلا شك لن

يتمكن من أن يراقب حركات عينيها. وبرغم ذلك كله كان مطمئن البال وكان يشعر باستمرار أن صحن خده يتلقى مداعبة من نسمات مترعة بشلالات الفرح البهيج. وحين تدبر أمره أثنى المجذوب على نفسه لأنه اختار وضعًا لن يتمكن فيه ولو بالصدفة من رؤية راقصات الباليه حيث إنه استدبر خشبة المسرح. ومن حين لآخر كان يحدث زوجته بأنها أمتعته غاية المتعة بحضورها البهي وفتنتها المشبعة بالنعيم ودفق ابتسامتها الوضاءة. وبالرغم من تضجر جاره الأمامي من كثرة الضرب بظهره على الكرسي إلا أن المجذوب لم يعتذر للرجل، بل التفت وركز بصره فى وجهه جيدًا ثم سحب كرسيه إلى جهة اليسار قليلًا.

لاحظ الزوجان أن المكان لم يكتظ بعد، الأمر الذى جعل مزاج المجذوب يصفو وشجعه لكى يلثم حلمة أذن زوجته ثم يهمس لها بكلمات غزل مبتذلة يخالطها تهتك واضح. وكان المجذوب يضحك بصوت عال ويقهقه كثيرا. ولما شعرت بالضيق الشديد اضطرت أم أيمن أن تلكز زوجها عدة لكزات حتى عاد إلى رشده. وطلبت منه بعد لحظات أن يذكر لها سببًا واحدًا جعله يتمادى فى استفزاز الناس استفزازًا جلب له السخط الكثير .

بالرغم من هدوء الزوجين في نهاية المطاف إلا أن مراقبة الناس لهم لم تتوقف. وأديرت موسيقى هادئة وأصبح المجذوب يرقص بهمة

عالية ويتمايل على كرسيه وأحيانًا كان يقف ويطقطق بأصابعه ويصفق ويدعو أم أيمن أن تشاركه الرقص. وحين أعلن عن دخول الفرقة حمدت أم أيمن الله حمدًا وفيرًا وحركت شفتيها كثيرًا لكن زوجها كان منشغلًا بأمر آخر

انتهى العرض الذى ظاهره المجذوب وغرت به عين أم أيمن. وخطت الشابة الجميلة بتمهل وهى تراقب زوجها الذى أسرع وكاد أن يغيب عن ناظريها. وكانت أم أيمن لا تتحدث إلا لمامًا. وحين استدار زوجها ورفع صوته عاليًا لكى يسألها إن كانت راضية عن العرض زادت من سرعتها حتى بلغته. وفى تلك اللحظة وضعت يدها اليمنى على كتفه وضغطت عليه برفق شديد فتبسمت ضاحكة ثم قالت بلهجة متحمسة.

رائع .. رائع .. رائع جدًا جدًا

حرك المجذوب شفتيه لكنه لم يعثر على الكلمات التى تناسب الموقف. وصمت لعدة ثوانٍ ثم ربت بيده على ذراع زوجته الأيسر.

كانت خضراء ريانة الغبطة ومفعمة ببشر طازج لم تعكر صفوه لحظات صمتها الطويل، وهو صمت كانت تتخلله إيماءات بالرأس وابتسامة حبلى بالإدهاش. وشعر المجذوب بالنشوة المجنونة وطرب لأن زوجته أصبحت راضية تمامًا عنه. ومن جديد أمسك بيديها وشيئًا فشيئًا قرب جسمه البدين من جسمها. وفى لحظة ما ضغطت بقبضة

أصبعيها على جانب شدقه الأيسر ثم هزت رأسها عدة مرات ذات اليمين وذات اليسار وتبسمت. كانت عيون الرجل توثقان للبسمة الساحرة وتلمعان مثل قطع البلور. أما هى فقد اعتدلت فى وقفتها وأشارت بسبابتها نحوه وقالت:

مجنون

وحين تبسمت ضاحكة كاد أن يتحول قولها إلى حقيقة

حين حدثها فى ذلك الوقت عن رغبته فى الزواج شكت فى نواياه لكن سلوكه بين لها الصدق الكثير فتزوجته. وبالرغم من أنه عزلها من أهلها وأصدقائها بعد الزواج إلا أنها أحبته كثيرا وأصبح الحب يكبر كل يوم ويزدهر. واقتربت منه ثم توقفت وفكرت فى أمر ما. وتذكرت أيام رفضه لمشط شعر لحيته وإصرارها على عمل العكس حتى رضخ لها. واقتربت منه أكثر ومسحت على لحيته وجذبتها وتبسمت ثم ابتعدت بسرعة حتى أصبحت على الجانب الآخر من السيارة الفخمة. وجاراها فى المشاغبة فتحرك ببطء حتى اقترب كثيرًا منها. وحين أدارت جسمها وهمت بالابتعاد رأت صديقتها مسرعة في اتجاهها. وسارت خضراء مسرعة وتركت زوجها ثم وصلت فأخذت الصديقة بالأحضان. ودفنت رأسها في كتف صديقتها فذرفت دمعات كثيرة جدا ثم قالت:

أم أيمن

ولم ترد الصديقة بل بكت وأسرفت حتى ابتل طرف خمارها.

فتح الرجل باب السيارة الخلفي وظل واقفًا فى مكانه حتى تأكد له أن أم أيمن الأخرى اطمأنت إلى جلستها. وكان يشملها بنظرة فاحصة شغوفة ولم ينتبه إلى أن زوجته كانت تراقبه. وهز رأسه ذا الشعر المصفف قبل أن يجلس على مقعد القيادة. وأصبح يحدق فى الفراغ ويحاول أن يقنع نفسه بفكرة أن أم أيمن تشبه زوجته في كل شيء. واستدار إلى الوراء فلاحظ أن أم أيمن تلبس فستانًا بيجي اللون وبنطالا أبيض وجزمة سوداء أما غطاء الرأس فيتكون من قطعة لونها أزرق فاتح تعلوها قطعة بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية. وعلى الرغم من اختلاف طفيف فى التفاصيل إلا أن الهندام عند الشابتين متشابه سوى الجزمة. وما أثار حفيظة الرجل أن أم أيمن كانت تلبس نظارة شمسية بنية تشبه تماما نظارة زوجته.

أدار محرك السيارة ثم أوقفه ثم نادى زوجته قائلًا:

خضراء.. خضراء

لم تنتبه له لأنها كانت تتحدث بحماس وبصوت عالٍ مع صديقتها. لاحظ أنه لم يجد صعوبة فى مناداتها باسم خضراء فأثنى على نفسه كثيرًا لأنه قرر قبل ذلك بلحظات أن يمسح اسم أم أيمن من ذاكرته تمامًا. وكان يردد اسم خضراء في سره عدة مرات ويعيد العملية حتى أجادها فى الطريق كان المجذوب يترنم بلحن رتيب وأحيانا كان يهمهم.

وحين مر الوقت اتضح للرجل أن الصديقتين كانتا على تواصل دائم عبر الهاتف. وكانتا تضحكان كثيرًا وتتحدثان كثيرًا عن ذكريات الجامعة. وتوقف أمام باب الدار وفتح باب السيارة من جديد فنزلت أم أيمن ثم فتح الباب الآخر فنزلت خضراء. ولاحظ أن أم أيمن لها نفس القوام البديع الفتان الذي تمتاز به زوجته. وشعر أن هذا التشابه سيصبح هاجسًا يطارده فيما بعد. ولم يك من قبل يتوقع أن تظهر لزوجته صديقة بل صعق لما أيقن بالتشابه الكبير بينهما.

وفي غرفة النوم كانت الصديقتان تثرثران كثيرًا وتضحكان بأصوات عالية بينما كان المجذوب يجلس على أريكة الصالون ويعدل من وضع جلسته باستمرار. ووجد الرجل ما يشغله حين أنشأ رابطًا دائمًا بين أذنه وبين الحائط حتى يتبين حديث زوجته من حديث صديقتها. ومع حرصه الشديد إلا أنه فشل تمامًا لأنهما كانتا متشابهتين تمامًا في طبقة الصوت وفى نبرته الفريدة وفى ميزاته كلها وفي طريقة الكلام. ولما سئم أغمض عينيه وقرر أن ينام لكنه عاد ففتحهما مرة أخرى ونظر إلى السقف وهو يصب جام غضبه عليه ثم قام فأخذ صورة زوجته وعاد فجلس على الأريكة.

شد المجذوب بأصابعه المتوترة على إطار الصورة حتى كاد أن يهشم زجاجه. وتبسم تبسمًا واضحًا لما اكتشف أنه عاشق متطرف مجنون. وشعر بأن خضراء تتبسم كذلك وتراقبه بعينيها الواسعتين الجميلتين

الجذابتين. ووضع الصورة على الأرض واستلقى على ظهره فاستقام جالسًا فرفع الصورة أمام عينيه فلاحظ أن زوجته جعلت تغمز له بعينيها الساحرتين ثم تتراجع رويدًا رويدًا إلى الوراء. وأخيرا قالت له:

تصبح على خير

مد يده لكى يودعها لكنها تراجعت وابتعدت ثم فر طيفها

ولأنه لم يتقبل فكرة اختفائها فقد أغمض عينيه وناداها وألح فى التضرع حتى عادت إليه فتبسم كثيرًا ثم قبل كل ذرة من جسمها. وأحس بمتعة لم يحس بها من قبل. وحسب أن العسل سال على خده فمرر عليه يده اليمنى ولعق أصابعه. وقبلت خضراء يديه وقبل يديها ولما أفاض سحبتها واختفت. ومال المجذوب إلى جانبه الأيمن ونام وهو يحتضن يده اليسرى.

عادت خضراء مرة أخرى وقالت له:

لا تنس أنا أم أيمن

لا بل خضراء

أم أيمن

خضراء

كان يرتجف وهو يردد كلامه وحين تحركت المرأة أصبح يتقلب ذات اليمين وذات الشمال وهو يشاهدها تسرع فى مشيها ثم تعدو ثم تجرى بتسارع رهيب حتى اختفت. ووجد نفسه يتجول فى المدينة فرأى

أماكن النزهة المميزة ومتاجر العطور الأثيرة عند زوجته والمجوهرات الثمينة والملابس الأنيقة ومطاعم الأطعمة المحببة لديها لكنه مع كل ذلك لم يستطع أن يمحو صورة المرأة التى تشبه حبيبته تمام الشبه وعرفت نفسها بأنها أم أيمن. ومن جديد نادى زوجته باسم خضراء وردد الاسم كثيرًا ثم هب مذعورًا. وفتح عينيه واسعتين وأرخى أذنيه فتبين له أن سبب الهلوسة هو الضحك الكثير المتواصل والقهقهات العالية.

كانت الشابتان قد ذعرتا من صوت انفجار قوي فظنتا أن الرجل قد تعرض لضغط ما فقام بفعل ما غريب. ومرت فترة صمت قصيرة ثم ضحكت زوجته من جديد فتبينت له ضحكتها المميزة. وتبسم وتمطى وهو راض عن نفسه. وحمد الله لأنه اكتشف وجه اختلاف بين خضراء وأم أيمن. وانتظر ضحكة خضراء النضرة الخصبة وانتظر لكنها لم تأتِ فنام من جديد. وحين هب من نومه طوى اللحاف البلاستيكي الذي انفجر من قبل ثم صلى صلاة الفجر وردد تعاويذ كثيرة سعيًا لطرد الشياطين الذين كانوا يتكالبون عليه ثم صب لنفسه فنجانا من القهوة وانتظر.

سمع المجذوب صوتًا يقول:

إلى لقاء

وانتظر سماع المزيد لكن خاب ظنه. وخمن أن أم أيمن هى التى

غادرت فتحرك نحو غرفة النوم وأدار مقبض الباب. وقبل أن يدلف إلى الداخل تذكر واجبه الدينى فطرق على الباب. وحين لم يجد إجابة عاد من حيث أتى. ولما عادت زوجته من الخارج تنفس الصعداء وحمد الله على تردده لكن التجربة زادت من كرهه لصديقة زوجته.

عند مائدة الإفطار كان يستمتع بطعام زوجته والضحك اللذيذ وسحر عينيها الرائعتين وكان يغدق عليها عبارات الغزل اللطيف. وحاول أن يتجاهل ثرثرة أم أيمن فلم يوفق. وعلم أنهما كانتا صديقتين في المدرسة الثانوية وفى الجامعة. وحين رفع رأسه وجد أن عيون أم أيمن خضراء لكن سريعا تذكر أن زوجته كانت قبل أسبوع تضع عدسات لاصقة خضراء. وأغمض عينيه مرة أخرى. وأدرك أن شبح أم أيمن بلا شك سيظل يطارده باستمرار. وضايق المرأة حتى نجح فى أن يجعلها تغادر بعد الإفطار مباشرة.

ذهب إلى الحمام فغسل يديه عدة مرات وأدام النظر فى المرآة. وتمكن بعد جهد جهيد من أن يقبل فكرة أن لزوجته تجارب في الماضي يجب مواجهتها لا الهروب منها. ورغم قساوتها إلا أن تجربة تلك الليلة جعلته يعيد النظر في الكثير من الأشياء والأفكار. وزوجته قبلت به وقبل بها وهو يعلم أنها تحمل سمات بيئة ثقافية مختلفة جدًا وهى لن تتخلى عن موروثاتها الثقافية برغم الحب وهذا تحد آخر اكتشفه المجذوب.

صداقة

بعد أيام من تلك الأحداث كنا نتحدث حديثا كثيرا ونبذل جهودا كبيرة حتى نتمكن من أن نسترجع كل تفاصيل القصة. وكان الهدف هو التوافر على بناء جديد للحكاية يبين الدوافع الحقيقية للفاعل. وفي أحيان كثيرة كان صابر حسين الأستاذ الجامعي يستمع إلي بلا اهتمام على الرغم من اعتدال جلسته وتركيز بصره جيدًا في عيني. وقد أثرت الأحداث عليه بقوة ولم تعطه الفرصة لكي يرمم آثار الحزن العميق الظاهرة على وجهه العريض. ولم تنجح الأيام فى جعله يبدل من وضع أدى انحسار ابتسامته المميزة.

قابلها بابتسامة مشرقة ريانة شملت عينيه الواسعتين وزادت من نضارة وجهه. كان يبدو كطفل وهو يصف لي تفاصيل فرحته المخضرة الولودة. قال إنه لم يك يصدق أن زهرة الجميلة ستقبل طلب الصداقة. وكنت أعرف بأن قناعته الراسخة هي أن الصداقة الأسفيرية عمل لا طائل منه ما لم تقترن بمعرفة وثيقة ناتجة عن تجربة واقعية طويلة الأمد.

كنا من ضمن الحاضرين إلى الحفل الذي نظمته الجمعية الخيرية.

وشدت المرأة انتباه صابر عندما كانت تتحرك بنشاط مميز وتلتقي بالناس وهي مبتسمة وتروج لمشاريع الجمعية بتوزيع النشرات والكتيبات والمشاركة في النقاشات. ولم يظهر عليها أي مظهر لتعب ما ولم تفارقها الابتسامة العذبة البراقة لحظة واحدة رغم الجهد الكبير الذى بذلته. وفي لحظة ما لكزني صابر لكي يلفت انتباهي. وحين عزمت على التركيز فيها وجدتها قد غادرت المسرح.

كانت واقفة قرب الباب كأنها تنتظر شخصًا سيظهر فى القريب. وعلى الرغم من أن طريقة وقفتها كانت بينة للجميع إلا أن صابر لم ينتبه لها إلا بعد أن نجح في أن ينسل من بين الجموع المكدسة ويواصل مشيه عبر الدهليز الضيق. وحين اقترب منها توقف مترددًا. وبلا تردد قالت له:

تفضل يا أستاذ

شكرًا

وبسرعة تنحت جانبًا أما هو فمضى في سبيله ثم توقف بعد ذلك والتفت ليتأمل فى ألق عينيها الحلوتين وتفاصيل جسدها ولم يهتم بدفع الناس له. وفي الخارج كان ينفث سحابات دخان سجائره التي سلكت طريقها نحو السماء ولم يتخلَ عن مراقبتها من حين إلى آخر. ولما أكمل سيجارته وسمح لعضلات جسمه أن ترتخي، أخذ يتصفح في الصور الجميلة التي أثرت كثيرًا في خصوبة خياله الوليدة وجعلته يعيد التأمل

في وجه زهرة الآسر وروعتها وأناقتها الملفتة.

في الوقت الذي أنشأت فيه كثافة الناس في التناقص شرع صابر يخطو بحذر نحو زهرة بعد أن اطمأن إلى أنه قد تخلص تمامًا من التردد. وفي اللحظة التي وقف فيها أمامها تدفق نحوه شلال من البشاشة وحفاوة الاستقبال التي شملت كذلك المكان كله. ابتدر الحديث بالشكر والإشادة بجمعيتها التي ساهمت بجهد كبير في إنجاح الاحتفال. ومضت الشابة فى حال سبيلها لكن لم يمنعها انشغالها مع زميلاتها من أن توليه اهتمامًا مميزًا. وبعد حين أعطته البطاقة وحثته على التواصل معها عبر الشبكة العنكبوتية.

منذ سنوات كون صديقي صابر موقفًا راسخًا حول الإنترنت حيث اعتبرها مفيدة فقط في حال البحث العلمي. وقد ظل صادقًا مع نفسه فهو لا يستخدمها إلا للترويج لكتاباته وأبحاثه. وزوجته تتفق معه فى هذا بل تتشدد فى موقفها الحازم ضد أى صداقات أسفيرية. وعلى الرغم من هذا فإن انهماكه فى كتابه الرسائل إلى زهرة واهتمامه الكثير بلغة الرسائل وأسلوبها ظل أمرا محيرا. إضافة إلى ذلك فإنه كان يبحث كثيرا في المعاجم الرقمية ويستشيرنى أحيانا قبل أن يرسل النصوص.

وصله خبر قبول طلب الصداقة فانتقل إلى حالة مشاعرها مختلطة. فمن ناحية كان صابر مغتبطا جدا لقبول الطلب ومن ناحية أخرى تضجر كثيرا لأنه لم يتلق ردودًا على الرسائل الكثيرة التى أرسلها إلى

زهرة بالبريد الإلكترونى. ومن شدة لجاجته أصابني الضجر كذلك.

اغتبط جدا حين وضعت زهرة صورة جديدة جميلة تزين ملفها الشخصى. وقد تسببت الصورة بعد ذلك في توليد ردود أفعال إيجابية وسلبية. والمحير هو رد صابر الذي جاء متأخرًا ومختصرا والذي حشره حشرا بين الردود الكثيرة. ومع ذلك فقد أرسلت زهرة رسالة شخصية تشكره فيها على كلماته.

وفى لحظة ما أثناء الحفل وجدنا زهرة وزوجها خلف الكواليس فاستقبلنا استقبالا رائعا. كانت تلبس نفس الفستان الذى ظهرت به فى الصورة التى رد عليها مئات الأصدقاء وأثرت كثيرا جدا على الحاضرين منهم والغائبين. والفستان كان من المخمل الأحمر وكان ضيقا إلى حد ما فأظهر أنوثتها وسحرها وجاذبيتها الدفاقة. وأعطتنا عصير مانجو ثم ذهبت. وساد صمت ساعدني علي استرجاع الكثير من الأحداث وربط ردود الأفعال. ومن المنطقي أن يسهم الكم الهائل من الإعجاب الإسفيرى في شحذ حماس زهرة ويجعلها تستخدم الزخم الكبير للترويج للجمعية عبر الإنترنت. أما المثير للناس فهو الحذر الكثير الذى أبدته وكذلك الردود الماكرة والضبابية.

وكان صابر هو الآخر من الحذرين. وحدثني بعد ذلك أن الذي شجعه على كتابة نصه القصير هو مبادرتها بالسؤال عن رأيه حول الحفل الخيري. فاستطاع أن يهزم التردد ويكتب نصًا قصيرًا احتفظ

به في حاسوبه الشخصي لمدة نصف ساعة. وكان يجري خلال نصف الساعة التعديلات ويناقش مع نفسه ردود الأفعال المحتملة.

مباشرة بعد أن رد صابر على زهرة ظهر صديق إسفيري مشترك، فقام بتنبيه الجميع إلي وجوده ثم اختفى. وفي تلك الأثناء كان منكبًا على دراسة نص صابر وتحليله من أجل وضع الرد المناسب. وفي لحظة ما علت وجهه ابتسامة عريضة وامتلأ بنشوة الشخص الذي عثر على أغلى كنوز الأرض. وأكمل شرب قهوته فتمطى فأرخى عضلاته كلها ثم ترك خياله لكي يتوغل في الجنة الوريفة. وغشيته غفوة وحين انتصب جالسًا كان على يقين تام من أن الرد الذي اطمأن له قلبه سيحقق كل التوقعات.

عندما كنا خلف الكواليس كانت زهرة تشرب الجرعات الأخيرة من قهوتها ثم غادرت المكان. وفي لحظة الصمت كنت أحدق في وجه صابر. أدهشني لأنه ظل متماسكًا وواثقًا من نفسه رغم الضغوط التي سببها له العمل الخبيث الذي نفذه الصديق الإسفيري الغامض بحذقه المميز. وعندما تحدث صابر كانت عبارته قصيرة لكنها معبرة وبليغة. أما أنا فأكثرت من الثرثرة لكي ألطف الجو وعلى عكس ذلك كان زوج زهرة حيث كان صامتًا لا يتحدث إلا لمامًا. أما صمت زوجة صابر فيعزى إما إلى أنها خجولة بطبعها أو أنها كانت تستمتع بنشوة الانتصار.

النص والتعليق الخبيث أثارا ردود أفعال متباينة وضجة واسعة النطاق. وفي لحظات شكلت الهمهمات والهمس والتساؤلات الكثيرة والشكوك مصدرًا لخطر داهم على الحفل. والكل يعلم الحقيقة، فلا صابر أخطأ ولا زهرة، لكن انهالت عليهما الاتهامات والشكوك من كل صوب. وقلت لصابر إن الصديق الحقيقي هو من يثق فيك تمام الثقة لا في إجماع الآخرين. وكنت أعلم أن السيطرة صعبة عندما يكون الأمر مقتصرًا على الشبكة العنكبوتية. وكنت أجلس بجواره ولما فرغ من الكتابة نبهته إلى الرد الحاسم. وفكر مليًا فانتصب واقفًا ثم قال.

لا شيء غير الطرد

لن يجدي وقد يزيد من الشكوك ويعقد المشكلة

وعدل من وضع جلسته. وصمتنا وانغمسنا في جو من الحيرة والضجر. وصارحته بخطة يستدرج بها الشخص المجهول إلي حوار مباشر فوجدته قد جرب هذا من قبل. قال إن الذئب الرعديد تعود على أن يأتي خلسة في الظلام ليسرق ثم يهرب.

كان كل نص موجهًا إلى صابر مباشرة ولكنه ذو جمل مبهمة وحمالة أوجه. وبعد ساعة أضاف الذئب أسئلة وطلب من صابر أن يجيب عليها بوضوح. كان في كل مرة يطرح سؤالا واحدًا مستفزًا ثم يختفى. وحين وصل إلى أقصى المدى كان الجو مكتنزا بالخصومة والتشفي والتهديد. ورفع البعض رايات النصر واحتفل. وقد اتضح ذلك من

ملاحظتي للصورة المرسلة ووجوه الناس وتتبع كلامهم وهمساتهم.

قرأت نص صابر عدة مرات ولم أجد ما يجعلني أغير حكمي عليه. كانت كلماته واضحة جدا كأنه خطها على لوح أسود بمداد من فضة. وكتب لزهرة يقول:

فستانك تاج ذهبي ملكى حط في موضع يليق به. مبروك وشكرًا مرة أخرى.

بعد أيام كنت أتهكم وأسخر من صابر وأقول له إنك قد فشلت في إقناع زوجتك بجدوى الإنترنت فدفعتها دفعا إلى التشدد.

في لحظة ضعف ارتبكت زهرة وتجاهلت النصائح وجعلت تسرد لصديقاتها تبريرات حول الصورة ثم ذهبت أخيرًا وغيرت الفستان. وعنفت على ذلك العمل لأنه لم ينجح في ترميم ما انكسر. ولم يغفر لها الأعداء حين تراجعت لما أدركت الخطأ ولبست الفستان الأحمر من جديد. أما تجاهلها للصديق الخبيث فقد أثلج صدري. وهى لم تكتب حرفا واحدا للرد عليه رغم أنه كان يواسيها في البدء ثم أصبح بعد ذلك يتودد إليها بعبط بين.

انتظرنا لمدة ساعة خلف الكواليس ولم يأت الآخرون. خرجت زهرة ثم عادت بعد حين وهي تلبس نفس الفستان الأحمر. وظهر عليها مزاج إيجابي بين. وفجأة تحدثت كثيرا فأضفت على الجو لطفا وارتخاء مريحا. وحين عم الهدوء جعلت أفكر في العبارة التي تسببت

في المشكلة. وكانت العبارة تقول:

الفستان أظهر بوضوح أنها حامل لكن من أين أتتك الجرأة لكي تزف إليها التهنئة على الرغم من أنها لم تخبر زوجها حتى الآن.

وكان هذا هو السؤال الأخير من أسئلة الصديق الإسفيرى والذي كاد أن يدمر الإنجاز الكبير للجمعية الخيرية.

حين جاء الضيوف رجالا وامرأة استقبلتهم زهرة وزوجها. وجلسوا وسادت فترة صمت ليست بالقصيرة قرأت من خلالها تفاصيل الحذر البادية على وجوه الناس. ظلت المرأة صامتة لكن أحدهم تحدث باقتضاب وشكرنا وحمدنا الله على نجاح الحفل. ولما أكمل مد زميله ورقة عليها نص مكتوب بخط اليد. وأخذت الورقة من يد الرجل وشرعت في قراءتها. وكان صابر ينظر إلى الورقة بلهفة. وكان قبل دقائق يحدثني باستمرار عن رغبته في مواجهة ذلك الرجل على انفراد. وكان يسميه الوطواط. وكنت ألمح في عينيه الرغبة الأكيدة في الانتقام.

لما أكملت القراءة سلمت الورقة إلى زوج زهرة. في تلك اللحظة انفجرت المرأة الصامتة بالبكاء وقذفت بنفسها حتى استقرت بين قدمي زهرة. وحين أرادت تقبيل القدم رفضت زهرة ذلك. ومع ذلك ظلت المرأة الثلاثينية جالسة على الأرض وهى تنتحب وتشهق بالبكاء وتعتذر للجميع.

لو قبل صابر نصائح طلابه لكان التلف أقل بكثير مما حدث. لكن الذي جعل الأستاذ الجامعى يتردد هو أن المرأة، وعلى العكس مما ظهرت كرجل إسفيرى، كانت تبدو على صلة حميمة مع زهرة حسب أحاديتها وسلوكها في الحفل، أو فى الحقيقة. علاوة على ذلك فهي تعمل في جمعية متعاونة مع جمعية زهرة. والمحير أنها كانت تلبس فستانًا شبيهًا جدًا بفستان زهرة الأحمر الذي ظهرت به في الصورة. لكن العامل الحاسم كان هو الطلاب البارعين في تقنية المعلوماتية والمتميزين في استخدام الأساليب المختلفة لكشف القرصنة وغيرها من الجرائم الإسفيرية. وهم الذين كشفوا المرأة الوطواط ولخصوا نتائج بحثهم في الورقة التي أخذتها منهم وقرأتها بصوت عال وقرأها كذلك صابر.

طـــياء

قبل أن يأتى ويخلع نعليه ويجلس بجوارها كانت قد استطاعت أن تكمل مهمة مرهقة جدا وهى نفض الغبار عن الزرابي والألحفة والمساند ومن ثم تعريضها لحرارة الشمس. والمهمة الأخرى هى ليست أقل إرهاقا حيث أعادت الأشياء إلى الداخل فوضعتها على الأرض ثم نظمتها التنظيم نفسه الذي اعتادت عليه. وحين اكتفى من التدخين وضع الخرطوم على الشيشة ثم أسند ذراعه الأيمن على المتكأ. ونظر إليها فوجدها تمعن التأمل في وجهه الوسيم والابتسامة الحلوة تكسو وجهها كله. ومال إلى جانبه الأيسر ثم جعل يحرك جسمه الرشيق بحذر حتى لامس كتفه كتفها.

وكما عودته في كل مرة فقد سحبت ثلاث وسادات واتخذتها حاجزًا بينها وبين حبيبها. وبذل الحبيب الجهد كله لكي يخفي آثار الغضب العارم لكنه ظل في داخله مسكونا بهواجس توحي له بأنه يعامل كطفل. وهو يعلم تماما بأن ما فعلته معه يعد استثناء لأنها لم تسمح أبدًا لرجل من غير أفراد الأسرة بأن يدخل إلى غرفتها. وكتم يزن غضبه ثم

تحرك مبتعدا عنها.

كانت لمياء تديم النظر إلى حبيبها وهي فى نفس الوقت تكتم حديثا ما. ونظر إليها نظرة لم تدم طويلا حتى أدرك أنها أصبحت نادمة على ما حدث قبل لحظات. ووضع رأسه على المتكأ الصلب ثم مدد رجليه ثم اضطجع وأرخى جسمه تماما. ولما شعرت لمياء بأن عنقه يؤلمه ساعدته على تغيير وضعه ثم وضعت له وسادة ناعمة. وظل يزن صامتا فلم تطق هى حالة صومه عن الحديث فدفعته دفعًا من كتفيه حتى استقام جالسًا ثم مسدت له ظهره وكتفيه. وكانت في تلك الدقائق تعتذر له بكلمات طيبة وتشرح له دوافعها. وعندما اطمأنت إلى خمود ثورة غضبه أخبرته بأن ما قامت به لا يتناقض مع مبادئها لكن الذي أخطأت فيه هو طريقة التنفيذ.

أدار يزن جسمه ببطء فشكر حبيبته ثم أمسك يديها وهو يستمتع بالنظر إلى وجهها الأسمر المستدير ذى الجاذبية الطاغية. وقد هيمه حبها فاشتط فيه حتى وصف بالأخبل. وكان زملاؤه يغتابونه ويقدحون في حبه للسمراء. وعلى العكس منهم كان هو ينعتها بالزيتونة النضرة الولود التي تستعير منها أوراق الجنان الندى الأنيق والألق الممراح. وعندما أطلق يديها جعل يحدثها عن دوافعه ورغبته الحقيقية. وبالرغم من حماسه الشديد وموقفه شديد الإيجابية إلا أنها لم تقتنع بخطته. ولما أعياه الحديث صمت فصمتت الحبيبة. وبعد دقائق أيقن بأنه وصل إلى

طريق مسدود فآثر بألا يزعزع سكينة فؤادها فنحى أفكاره جانبًا.

الأب كان معترضًا اعتراضًا شديدًا على ارتباط ابنه بلمياء لمجرد أنها سمراء. وأذاع على الملأ موقفه وهو أنه فعل ذلك لأنه ملتزم بتقاليد العشيرة لكنه في قرارة نفسه كان كذلك يضمر رغبات أخرى. الخطوبة نفذت رغم أنف الأب وأسرته أما لمياء فقد وافقت عليها بعد أن جاهدت نفسها وهزمت التردد. وهي حقًا تحبه حبا مفرطا لكن الذى كان يقلقها أشد القلق ويشكل هاجسًا مزعجًا لها هو حقيقة أن كسب رهان الزواج من يزن سيظل ضعيفا على الدوام.

صمتا ومرت لحظات توتر أخرى قرر الحبيب بعدها أن ينفذ ما اعتمل في داخله فشرع مجددًا في الاقتراب من لمياء ساحرة الجمال. وثبت كوعه الأيمن على سطح المتكأ المستطيل فوضع ذقنه على قبضة يده ثم رفع حاجبيه الكثيفين وجعل ينظر إليها ويمد بصره إلى كل جزء من جسمها. واتسعت عيونه السوداء الواسعة الحنونة. واعتدلت لمياء في جلستها واقتربت منه فمررت يدها الرقيقة على خده الحنطي ثم ضغطت على شفتيه المطبقتين بالسبابة والإبهام وأحكمت الضغط وقالت له:

أحبك ... أحبك.

وصمت وأدام النظر إلى عينيها النيرتين. وكانت في تلك اللحظات تهز رأسها ببطء والابتسامة النقية الحلوة تنمو وتنمو وتكبر حتى

طغت على وجهها كله.

ومرت لحظات سكون كانت لمياء خلالها تؤكد لنفسها بأنها لن تسمح لشلال السرور العذب بأن يتوقف عن التدفق. ووضحت للحبيب أن العجلة واللهفة لا طائل منهما. وحين أصر سعت إلى تهدئته لكنه عاند فقابلت عناده بتصميم واضح على موقفها السابق. ولم يبد أي اعتراض لأنه كان يثق في قدرتها على قيادة سفينة الحب إلى بر الأمان. وبالرغم من ذلك فهو يعلم تماما تلك اللحظات التى تظهر فيها حماقتها وتهورها.

واطمأن يزن إلى خطة بديلة فسحب الوسادة من جديد ووضعها تحت رأسه ثم مدد رجليه على اللحاف وجعل ينظر إلى اللوحة الكبيرة الماثلة أمامه. وأمضت لمياء دقائق عديدة وهي محتارة تحدق فيه لكنه لم ينتبه إلى ذلك. ولم تدعه لكي يصبح أسيرا لشروده فمسحت على شعره ثم على خديه ثم سألته عما إذا كان غاضبا عليها. وبسرعة قال لها:

لا ... لا.. بالعكس ...

وانتظرت بقية حديثه ولما يئست عزمت على أمرها.

أسندت الفتاة السمراء ذراعها اليمنى على المتكأ ثم مررت أصابع يدها اليسرى على شعر يزن البني الناعم الغزير. وهمست له بحديث عذب تنزل عليه مثل زخات مطر رطبت سماء مدينتها ذات الطقس الاستوائي اللافح. وساعدته على النهوض فاستقام فجذب يدها

وأدخل أطراف أناملها في فمه. وتبسمت لما شعرت بضغط الشفاه على الأصابع ثم ضحكت حين نظر إليها وغازلها بعينيه. وضحك يزن وقهقه كثيرا حتى ظنت الحبيبة أن جنيًا قد غشاه.

فى ذلك الوقت كانت تستغرقه الأفكار المضطربة لكنه اهتدى أخيرا إلى منهج كفيل بمساعدته على طرد الهواجس والوساوس والظنون. في البدء كان يظن خطأ أن لمياء أرادت أن تختبره فصنعت حاجزا بينهما. لكن حبيبته لم تتركه لكى يصبح أسيرا للأفكار الكثيرة فشبكت أصابع يدها بيده ثم طلبت منه النهوض فهب جالسًا وقلبه يخفق. قال لها:

أحبك. أحبك كثيرا يا لمياء

مدت يدها ومسحت على شعره ثم قالت:

وأنا كذلك بل حبى لك ظل يزيد ويكبر

كان يزن يتخبط أحيانا فى تصرفاته ويسلك مسلك العاشقين المراهقين. وكان أحيانًا يغض النظر عن مخاطر الغيرة المحتملة ويقول لزملائه إن لمياء السمراء الجميلة لها بشرة أكثر لطفًا ورقة من المشمش الطازج وألذ من المانجو.

خلعت غطاء رأسها فى اللحظة التى كانت فيها تركز بصرها عليه. لم تتحدث معه بل تزحزحت وأسندت ظهرها على المتكأ. وكانت طول الوقت تمعن النظر في عينيه وحين كانت تنحى البصر جانبًا كان ينتهز الفرصة ليتأمل فيها. كان يؤمن بأنه لم يشاهد فى حياته عينين عاشقتين

كعينى لمياء. وكان يظن صادقًا أنه سيغرق يومًا فى الألق الساحر الجاثم فى عينيها الساحرتين. وبعد لحظات ذهبت الشابة الصغيرة فبدلت الجمرات وكان الحبيب فى تلك الأثناء يجول ببصره ويتتبع تضاريس الجسد البديع.

حين عادت إليه تصحبها البسمة المشرقة كسته روح جديدة فأغمض عينيه واستمع إلى نغم ليمياء المبهج. وتحدثت عيناها ساعة كاملة فحركت فى عينيه طلاوة السنين. وتحدث بعينين حانيتين فاندلق نبع الحبور وظل يروي السنابل المعطاءة فى جدار القلب المرهف ويوطن فيه جذور العشق الطروب المنتشي. واحتفل بيقينه من نضج الحب وروحه المتقدة المبهجة دومًا والمفعمة بالأمل والإشراق. واستدار وحرك خده حتى أصبح قريبًا جدًا من خدها. واكتشف أنها أصبحت تشع جمالًا نادرًا أنيقًا في زخرفه، وأضحت أكثر هدوءا واطمئنانا. وأغمض عينيه لكى يستمتع بالنعيم المتدفق نحوه والروح المتحفزة للعطاء.

كان كثيرا ما يقول إن لمياء نبتة فياضة فى أرض مباركة وإنها مخضرة الترائب ومعطاءة وولودة مثل أمها. واقترب منها كثيرًا فمالت إليه ووضعت يدها على كتفه فطاوعها فجذبته فقطنت رأسه بحجرها. وتواطأ مع نفسه التي دعتها لكى تمارس مداعبة شعره وجسمه بكل حرية. وأرخى جسمه وسكن تمامًا حتى غفا. وحين صحا من غفوته جعل يتخبط مثل المخبول. وفجأة عاد إلى طيشه فجزم فى سره بأنها

أرادت أن تشجعه على أخذ زمام المبادرة والشروع فى ذلك العمل الذى حلم به.

وصمم يزن على طرد التحفظ كله وعزم أمره على محاولة جديدة. وكان لا يرى أى غضاضة في تنفيذ نواياه. عونا على ذلك فهو قد أصبح مقتنعا بأنها ستسامحه كما فعلت من قبل وستنقذه من المطب كما عودته دائما. ولم يتحدث معها أو يستأذنها إنما قام فجأة بوضع ذقنه على كتفها. وحين ثبت يده على الحائط أدركت بأنه قد يقدم على ارتكاب حماقة فنبهته بأنه فى هذا الوضع يتعمد أن يحاصرها. ولم يرعوِ بل طلب منها صراحة أن تحيطه بذراعيها. وبدون مقدمات دفعته بعيدًا عنها ورفعت سبابتها فى وجهه. وشعر بأنه قد تورط فى حماقة حقيقية وخطرة فاعتدل فى جلسته ثم انسحب مبتعدًا والعرق الكثير يتصبب من جسده.

حين استقر حاله فى وضع جديد أصبح ينظر بعيدًا وفى نفس الوقت كان يردد عبارات اعتذار وعبارات غزل مكرورة ويثرثر كثيرًا. ولما انتبه لها وجدها تنظر إليه وتتبسم وتتلاعب بشعرها الأسود الغزير. وهمد تماما وانتبه لنفسه فتدفق البوح منه وحدثها عن استمتاعه بكل قطرة نعيم سقتها له. وضحكت حتى اهتز كل جزء من جسمها. وأسند رأسه على حجرها من جديد. كان وقتًا نيرًا مشرقًا بالبشر أمضياه سويا واستمتعا بكل ثانية فيه. وبعد حين شعرا بالشمس وهي تتسلل خلسة إلى مضجعها الغربى.

انتصبت لمياء واقفة ووضعت الخمار على رأسها. وهيأ يزن نفسه فأمسكته من يديه فهب ناهضا. ووضعت ذراعها حول كتفه وسارا نحو الباب. ووضع يده على خصرها فتوقفت واستدارت نحوه. وكانت تنظر مليًا إلى عينيه الجميلتين. ومسحت بيديها مرارًا على ظهره ثم على شعره ثم قبلت جبينه. وحين دفن رأسه في صدرها كان يحلم بكل الأشياء الحبيسة الممتعة ويجهز مشاعره كلها لكي يرتشف من العسل الأسمر المقيم في شفتيها. وقبلته فى خده ثم استدارت ووضعت ذراعها حول كتف حبيبها من جديد وسارت معه. وفتحت الباب وحدقت فى عينيه طويلا ثم ودعته

كان فؤاده مكتنزا بالنشوة اللطيفة العطرة حين شكرها وودعها بحرارة. وكان على قناعة تامة بأن خطته تسير في الاتجاه الصحيح. وفرد ذراعيه وهز جسمه هز المنتشي ثم جعل يخب في مشيه وأحيانا كان يقفز. وفي الطريق كان يهنئ نفسه على التقدم الكبير الذي أحرزه وكان واثقًا من أنه سيحقق النجاح الكامل في المرات القادمات. أما حبيبته الفاتنة فقد انكبت على فحص الأوراق القديمة والصور وحين تعبت رمت جثتها الرشيقة على اللحاف ودفنت وجهها في الوسادة ثم طفقت تنتحب بشدة. وكانت لمياء لحظتها ترقد في نفس المكان الذي كان يجلس عليه حبيبها وكانت تهذي أحيانًا وأحيانا كانت تجهش بالبكاء ثم تمزق الأشياء التى تعثر عليها ثم تهدأ فجأة فتغني بصوت

حزين خافت.

طرق كثيرًا على الباب ثم انتظر ثم عاود الطرق مرة أخرى. وحين لج في الأمر فتحت له فاندفع إلى الداخل مصحوبا بعنف مفرط. لم يمهلها ثانية واحدة للتفكير فوجدت نفسها تلقى على الأرض ويداس على رجليها وتكتم صرختها وهي في المهد. وبالرغم من كل هذا لم تستسلم لمياء فقاومت حتى استهلكت جهدها كله. كان قويا وشرسا وفعالا ولا غرو فهو صاحب حنكة مميزة. وعندما اشتدت مقاومتها شهر سلاحه في وجهها. وبعد أن اغتصبها قال لها بصوت صلف متجبر:

اصرخي الآن اصرخي أيتها الفتاة الدنيئة. اصرخى واطلبى النجدة لكن تأكدي من أن لدى شهودًا كثيرين سيدلون السلطة على الفاعل الحقيقى وسيسردون كل التفاصيل.

وحدجها بنظرة عنيفة ثم خرج

هو رجل مقتدر وذو نفوذ كبير داخل عشيرته القوية. وهي من أسرة شريفة لكنها مستضعفة. وقد تمكنت لمياء من تجاوز الصدمة بعد أيام قليلة. وفى وقت من أوقات الهدوء أخذت تطرح على نفسها الكثير من الأسئلة وفي كل مرة كانت تستبعد أن يكون دافع الرجل الأساسي هو إفساد خطوبة ابنه يزن

حين ودعت خطيبها كانت متماسكة لكن بعد لحظات سادها

التأمل أدركت أن المكوث في المدينة لا يزيد الأمور إلا سوءًا. وهي كانت من قبل تحاول بكل قوة أن تقمع مشاعر الحزن وفي نفس الوقت كانت تعاند نفسها وتتماسك من أجل مصلحة حبيبها الذي اعترته حالة نادرة من النشوة. وبرغم عزمها الأكيد إلا أنها عادت من جديد لتبحث الأمر برمته لكى تجد مخرجًا مناسبًا لكنها لم تجد البلسم الشافى.

كاد الليل أن ينتصف فأدركت لمياء أن عليها أن تذهب. فحصت الأوراق وحقيبة السفر من جديد وبصوت واضح جعلت تقرأ الرسالة التي أرسلتها ليزن بعد ذلك.

أنا على يقين تام بأنك ستحاط علمًا بكل تفاصيل الأحداث وستعرف الحقيقة كلها. لكن أرجو منك ألا تلجأ إلى الانتقام. من جانبى فقد تمكنت من استيعاب الدرس ولب المشكلة. وأنت بدورك ستقدر على استخلاص أدوات من دروس التجربة وستمتلكها وستساعدك على تجاوز الجرح وبناء حياة جديدة. وفقك الله وحفظك. أحبك حبًا سيبقى دائمًا مرسومًا بماء الذهب على صفحات فؤادى المجروح.

وضعت الورقة داخل المظروف ووضعته على الأرض ثم أجهشت من جديد بالبكاء. ونهضت لمياء متحركة ببطء شديد وتماسكت تماسكًا نادرًا ولم تنس أن تمسح دموعها في لحظة تخطيها عتبة الباب.

شـهاب

قبل دقائق عديدة من بدء العملية جاء وجماعته ففتح لهم الباب فاتجه مباشرة إلى الحديقة ثم جلس على أول كرسى يصادفه ولم يتحدث مع أى إنسان. وبعد دقائق لاحظ أعوانه أنه ظل جالسًا ساهمًا قطبًا لا يتحدث إلا لمامًا. ولما طال صمته تطوع بعضهم وقدم له بعض الاقتراحات لكنه رفضها رفضًا تامًا. لم يناقشوه لأنهم يعرفون أنه إنسان عنيد ومعتد بنفسه عظيم الاعتداد. وبالبرغم من تفرد الظرف إلا أنهم توقعوا ألا يؤثر الحزن فيه ولا ينهار باكيا بل راهنوا على أنه سيظل على سجيته. وردد فى سره كما كان يردد دائما فى مثل هذه الظروف.

الرجال لا يبكون

لا يبكون أبدا

انتصب واقفا ثم عدل وضع عمامته وشاله المرصع بالذهب ورفع عصاه الأبنوس ثم تحرك فتحركت معه المجموعة كلها. واستغرق وقتا طويلا فى الوضوء وكان أحيانا يغمض عينيه ويضغط عليهما بأصابعه ويظل على هذه الحال لعدة دقائق ثم يعيد الوضوء من جديد. ولأن

الوقت كان مبكرا لصلاة المغرب فقد مل الرجال من الانتظار لكن لم يفكر أى منهم فى مغادرة المكان

تجمعوا قرب المدخل ولما التفت إليهم خبر حالهم فصرفهم راضيا واختلى بنفسه. لم يهن عليهم ذلك الحال لأنهم كانوا يعلمون أنه سيحتاج إلى من يظل قريبا منه فى ذلك الظرف. وعونا على رضاه عنهم فقد ظل يحبهم حبا كثيرا ويعاملهم كإخوة لا كأجراء. وكانوا يتوقعون أن يقع الاحتمال الأكثر سوءا وإن صدق حدسهم فسيصبح الرجل فى حالة تحتاج منهم أن يقدموا له مساعدة عاجلة أو إلى التدخل لمنع الضرر. وهم يعلمون أنه ذو شمم كبير، بيد أن المرء دائما يحتاج للبشر من حوله.

ما إن سمع الصوت الآتى من على البعد حتى تعرف عليه بسرعة فتبسم هونا ما ثم التفت لكى يبوح بأحاديث كثيرة لكنه لم يجد أيًا من رفاقه على مقربة منه. وكان الرجال قد ابتعدوا قليلا. وأغمض الرجل عينيه من جديد وضغط عليها فرأى ذلك الجسم الحديدي الحاد يخترق جسم شهاب وسمع صراخه يعلو ثم يعلو. وفجأة أخذ الصوت يتجه نحو الهدوء ثم رويدا أصبح صوت المؤذن يعلو ويطغى عليه ويصفو وينجلي.

كان يكثر من مدح شهاب ويقول لرفاقه أنه ذكى جدا وشجاع جلد ومثابر شديد الشكيمة قوى العزم وهو باهر الشموخ غزيرة عزة نفسه.

وانتظر الرجل عودة رفاقه لكى يحكى لهم الكثير عن شهاب لكنه شعر بيد تربت على كتفه فأدار جسمه بسرعة. واعتذر الطبيب بشدة لأنه أحس بأنه أفسد على الرجل حالة سكونه واستغراقه فى التفكير. ومع ذلك لم يضع الطبيب وقتا كثيرا فأعطى الرجل أوراقا لكى يوقع عليها.

إن إحراز النجاحات يجلب الحب لصاحبه. والانحياز لمن نحب قد ينتج عنه حصوله على مميزات لن يستطيع الحصول عليها فى ظروف مختلفة. وقد نعدها منحة عن رضا فيعدها الآخرون محاباة. وفى المقابل فإن التحيز هو ظلم وإن اعتبره الظالم تضامنا مع شخص عزيز. وفى كل الأحوال سيجد الفارس من يمتدحه وكذلك سيجد من ينتقده لأنه انحاز كثيرا إلى شهاب باعتبار أنه مدين له.

عاد الطبيب إلى غرفة العمليات وقام بتفقد أعضاء الفريق الطبى المنهمكين فى إكمال الترتيبات وإجراء المراجعات اللازمة حتى تتم العملية بصورة سلسلة. وحين عاد الرجل من الصلاة وجد أن الجميع ينتظره. لم يضع وقته فى الحديث بل توجه مباشرة إلى مكان شهاب فوضع يده على رأسه ومسح على شعره ثم على عنقه الناعم وانحنى فقبله على جبينه ثم اعتدل واقفًا

حين اطمأن الطبيب وتيقن من اكتمال كل التجهيزات أشار لفريقه بأن الوقت قد حان. كان شهاب ساكنا ولم يبد أى أمارات انهاك أو وجل أما الطبيب فكان يتنقل سريعا بين مجموعات الفريق الطبي لكي

يتأكد بنفسه من دقة التجهيز ولما اطمأن استدار نحو الرجل وقال:

جاهز يا فارس

ولم يرد الرجل على الطبيب ربما لأنه كان يتألم أو أنه عد الأمر إطراء محضًا. وكان الفارس فى تلك الأثناء يوزع نظراته بين عزيزه شهاب وأعضاء الفريق الطبي ويحاول بقدر الإمكان أن يخفى قلقه الشديد.

فى لحظة امتلاء الحقنة بالسائل غشيت الفارس رعشة خفيفة غير أن القليل قد لاحظ ذلك. وكانت الحقنة كبيرة جدًا وفظيعة لدرجة أن الحاضرين سموها فيما بعد المسدس. وكانت متحفزة جدًا لكى تدفع إلى الداخل الأذى الكبير كله والفزع الشيطانى والرعب عين الرعب.

كانت الممرضات تقفن ملتصقات بشهاب وفي لحظة اختراق الجسم الشيطانى المتخم بالسائل جسد العزيز كانت كل واحدة منهن تضع يدها على جزء من جسمه. وبعكس ما توقعن فلم يبد شهاب أى ملامح للتألم بل ظل على سجية الجلد كما عود الجميع. ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك الجميع بأن مفعول الحقنة قد بدأت سماته تظهر للعلن. كانت الأرجل تنشد وتنبسط والجسم يتشنج بسرعة وبشكل مخيف أما عضلات البطن فكانت تتقلص بوضوح وبوتيرة عالية. كان قد حل به ألم فظ مقيم وكأن مجموعة كبيرة من الإبر كانت تمارس وخزًا جماعيا ساديا على البطن والرأس معا. ووضعت الممرضات أيديهن على الرأس والبطن والأرجل وضغطن جيدا. وبخبرتهن كن يعرفن

الموضع الأكثر إيلاما فى مثل تلك الحالات وكن أحيانا يمسحن مسحًا خفيفا ناعما على الظهر والعنق.

أصبح شهاب يحرك جسمه سريعًا ذات اليمين وذات اليسار ويتلوي وينتفض بقوة كبيرة وبشكل سريع ومفاجئ ولم ينجح تكامل جهود الجميع فى تثبيته فى مكان واحد. ومع علمهم بالمصير المحتمل إلا أنهم لم يتخاذلوا واستمر دأبهم فحققوا نجاحًا. وحين اطمأنوا إلى أنه قد رضخ للأمر الواقع، تركوه وظلوا يراقبون.

فى وقت وجيز أصبح لون البشرة داكنًا جدًا وانتفخت الأشداق وتورمت الشفاه. وفى لحظة ما أصبح الكتمان أمرًا مستحيلًا فخرج المخبوء. ومسح وجه شهاب ونظف جسده. وبانت على وجهه ابتسامة غريبة. بالنسبة للبعض فقد كانت ابتسامة ذات نمط غريب أو هى سحرية ومخيفة لكن لم يتبين أحد منهم تفاصيلها كلها. وأخيرًا اقترب الفارس ووضع يده على عنق شهاب وقبل جبينه.

اعتدل الفارس وتحرك مبتعدًا فجلس على كرسى ثم أسند ذقنه على كفيه المطبقين ثم وجه بصره بعيدًا. كان يظن أن معجزة قد حدثت. ولما طال شروده سحب أحد معاونيه يده وجذبه إلى المكان فانحنى الفارس وأحس بأصابعه توضع على العينين. كانت ابتسامة شهاب هامدة كأنها مرسومة على منحوتة من الحجر الصلد. وهز الجميع رؤوسهم وأحاطتهم مشاعر الإعجاب به وفى نفس الوقت عمهم

الحزن الشديد. إلى آخر لحظة كان مصممًا على ألا يبدي أي مظاهر للجبن. وسكن الجميع ما عدا الفارس الذى فرك العينين مرارًا ثم تحرك رويدًا رويدًا متراجعًا إلى الخلف.

كتب الفارس على دفتر صغير ما يلى

رملي البشرة ناعمها أخذ من التبر لونه البديع الشامخ وعزته المتجذرة وارتباطه الدائم بالنصر. وكان العزيز يستبسل أيما استبسال لإتقان التدريب رغم القسوة. وقد عود الجميع على طول الأناة وألا تثنيه الإصابة. حين يعدو كان يضرب الأرض ضربًا كمن يشعر بالذهب يمور من تحت أقدامه. مبهج الحضور باهر الوجه مليح الطلة ذا طلاوة نادرة. حين أطلقت عليه اسم شهاب كنت أعلم أنه سوف لن يخيب ظنى أبدًا فكان سيد للسماء مهابًا أناف على كل الأنجم. وبعد انتهاء السباق الأخير قبل المرض كان يضرب برجله على الأرض ويبرز صدره الضخم إلى الأمام ويستدير يمنة ويسرة. كانت تسكنه رغبة إظهار حمده لى وفخره بالنصر المؤزر. وفى يوم ما اقتربت منه وربت على كتفه الناعم وأخبرت رفاقى بأنى مفتون بقوته ومثابرته والتزامه الدائم بما عاهد عليه من تحقيق النصر الأفضل المبجل. وفي أول سباق حسب الجميع أنه خاسر لا محالة لكنه خيب ظنهم في الثواني الأخيرة. ومنذ تلك اللحظة تشبث برايات النصر جيدًا حتى أصبح الناس لا يتحدثون إلا عن مقدار الفارق الزمني بينه وبين منافسيه.

تبسم الفارس من جديد لما تذكر تلك الكلمات. وكان مغمض العينين وهو يستمع إلى نفس الصوت الذي غشاه قبل الغروب ونفس الرنين والجرس الحلو. وقدر الرجال أنه أنشأ يحلم كعادته. ومع ذلك لم يقدر أي منهم أن يثير الأمر علنًا خشية من أن يفسدوا عليه طعم الذكريات الأثيرة. وأفاق الفارس وفتح عينيه وألقى نظرة أخرى على الفرس. وأصبح على يقين من الحقيقة المرة لكنه ظل مصرًا على ألا يبدي أى مشاعر من لوعة أو كرب وترك الناس منهمكين في إنهاء أعمالهم واتجه نحو دورة المياه.

قبل الدخول توقف وفكر مرة أخرى في أن الأمر هو مجرد غيبوبة. توقف وحدث نفسه قائلا

لا... لا.. ليس هو الموت

وصمت وساعده الصمت على أن يعود إلى رشده فقام بإعادة ترتيب الأحداث فتدبرها بروية. وفتح صنبور الماء البارد وغسل وجهه ويديه ثم أعاد العملية من جديد. ووضع العمامة جانبا ثم ترك الماء البارد ينساب على ناصيته ووجهه ثم أغمض عينيه وسكن. واعتدل وفتح عينيه ثم تمتم بحديث ما. كان يعلم أن المرض عضال وأن إنهاء حياة الفرس أمر لا مناص منه لكن الحزن هزمه حين واجه لحظة الفقد الأليم.

العربى يرتبط بالخيل ارتباط الروح بالروح. ولا عربى بلا خيل ولو

كانت فى عقله أو فى تسلية نفسه. وهو لا يعتبر الخيل مجرد معزز هوية ومصدر عزة بل هى درع كدرع الفارس وسهم أمضى من كل السهام. وفى صحراء واسعة مفتوحة للأعداء والغزاة كانت الخيل عندهم أحد معينات البقاء أسوة بالشجاعة والفراسة والحكمة.

أصبح الفارس يجاهد نفسه بقوة كي يمنعها لكن الدمعة اللاذعة تسللت هاربة من مقلتيه. وسالت وآلمته أشد الألم، هى نفسها الدمعة الساخنة الحامضة التى ود تجنبها من قبل. ووضع أصابعه على جبهته ثم سمح لنفسه بحرية البكاء فانتحب وشهق وشهق كثيرًا. وتوقف ثم عاد إلى البكاء. وبعد فترة أحني رأسه مجددًا وترك الماء البارد ينساب من الصنبور إلى رأسه ووجهه. وشعر ببرودة نادرة تعم جسمه وأحس براحة أبدية.

بعد أن أفرغ كل ما بداخله من مشاعر تحرك بهدوء إلى الخارج. وقبل أن يخرج كان يعتقد بأنه قد سوى كل شىء وعاد كما كان جلدًا متماسكًا. وأخذ طرف شاله وجفف ما اعتقد أنه دموعًا ثم مشى بثبات متجهًا نحو سيارته المتوقفة على مسافة ليست ببعيدة. وكان الرجال فى تلك اللحظات ينتظرونه أجمعين.

كشف القناع

فى البدء لم يتوقع أى من زملاء الدراسة أن يتخلى حمدى عن جزء من عجرفته المعروفة ويبوح لعدن بولعه الشديد بها. وقد ساهم عدد كبير من صديقاته فى الكلية فى أن تتحول النظرة السلبية من الزملاء إلى أخرى إيجابية، نظرة تعتبره بطلا أنهى حالة العداء والتنافس المحموم وحولها إلى حالة حب عنيف. كذلك أصبح صاحب مسيرة مميزة أصبحت تتناقلها الأجيال المتعاقبة فى جامعة الخرطوم. ومن قبل لم يعترف حمدى بذكاء عدن الواضح وتفوقها الأكاديمى عليه بل وصفها بأنها مجرد إنسانة جلفة انعزالية لا اجتماعية ومهووسة بالكتب.

ولأن الإثيوبية عدن كانت فتاة منفتحة وطيبة وبسيطة وتلقائية فى تصرفاتها، فإنها كانت تحكى تفاصيل العلاقة لكل زميلاتها. بعض قصص الحب مثل دفاتر المهنئين، بوسع الجميع الاطلاع عليها وإضافة ما يشاؤون من كلمات. وقد تمكنت عدن من جعل قصة حبهما تشبه تلك القصص المثيرة. ولأن الزملاء كانوا يحبونها كثيرًا

فقد أطلقوا اسم رحلة الشتاء والصيف على عملية الترحال اليومى للحبيبين. وكان حمدى يذهب إليها فى كلية الطب فى الخرطوم فيمكث هناك حتى منتصف الليل، وهى تفعل نفس الشىء حين تذهب إليه فى كلية البيطرة فى الخرطوم بحرى.

جلست عدن الأنيقة فى المكان المألوف لديهما فى المطعم الإثيوبى فى الخرطوم ثم أفردت ذراعيها النحيفين وتمطت وأبرزت صدرها الناهد إلى الأمام ثم تبسمت، لكنها انتبهت إلى الحضور الكثيف للزبائن المراقبين فتلاشت الابتسامة الحلوة من وجهها بسرعة. وعادت للتفكير فى أمر إزعجها لمدة طويلة. ولأنها كانت تريد أن تعمل بسرعة على ربط الحقائق مع بعضها البعض من أجل العثور على شواهد تؤكد أن شكوكها قد بنيت على أساس متين، فقد عمدت على أن تعزل نفسها تمامًا عن العالم الخارجى. اعتدلت فى جلستها وأسندت ذقنها على قبضة يدها الصغيرة ثم جعلت تركز بصرها على الأرض وتحاول جاهدة ألا تستمع إلا إلى كلماتها هى ولا شىء غير ذلك.

ست سنوات مضت من عمر الحب المميز لم تشك الفتاة خلالها أبدا حول عمق مشاعرها الفياضة. وهى فوق ذلك متيمة بالرجل ومع ذلك طرأ أمر ما أزعجها خلال امتحانات السنة النهائية، وهى فترة لا تحتمل أن تتعرض خلالها إلى ضغوط حسب رأيها، فقررت

التأجيل. وما إن بدأت سنة الامتياز حتى عادت لبحث الأمر من جديد. وعلى الرغم من اجتهادها الكبير وكثرة المحاولات إلا أن التفكير الطويل لم يفلح إلا فى زيادة حيرتها.

أذنت لنفسها باستراحة جعلت خلالها تحرك أناملها بسرعة وتتصفح الصور المحفوظة فى هاتفها الجوال. وتوقفت أكثر من مرة عند صورة الفتاة المرهرهة. قطب جبينها وشعرت بالشد فجذبت نفسًا طويلًا ثم فكرت بأن تزيل الصورة تمامًا لكنها فى اللحظات الأخيرة اهتدت إلى تدبير آخر. تبسمت بطريقة واضحة ثم استدارت ذات اليمين وذات اليسار، ولما اطمأنت إلى عدم انكشاف أمرها، عدلت فستانها الجميل وأرخت أطرافها. كانت تعلم أن حمدى يحب هذا الفستان الإثيوبي التقليدي مثل حبه للإنجيرة والمأكولات والرقص والأغاني الأثيوبية. وكان حمدى يحبها مثل المراهق ويباهي بها ويقول بأنه قد فاز بالبن الإثيوبي الأسمر الأصلي، كنية اختارها لها. وكان يقول إنه استأثر بنكهة الشيكولاته الخالصة وبسحر أديس أبابا النادر.

أوقف حمدى سيارته الفارهة فى موضع محظور فتكالب عليه الساخطون من المشاة وسائقو المركبات والباحثين عن المشاكل والنزاعات وصبوا عليه وابلا غزيرًا من اللعنات. لم يهتم بهم كثيرًا لأنه كان مشغول البال ومتعجلًا لأنه تأخر عن الموعد. وفجأة

توقف فى منتصف الطريق لكى يطمئن إلى أنه لم ينس أى شىء فى السيارة فاصطدم به أحد المارة العجولين، وبدلا من أن يعتذر الرجل لحمدى، لعنه وكال عليه الكثير من السباب. وحين التفت حمدى وجد أن الرجل كان يرفع يده محتجًا ومهددًا. تجاهل حمدى كل شىء ومضى فى طريقه وهو مشوش الفكر. وكان الرجل يعلم أن هموما أخرى تسيطر عليه إضافة إلى هم إدارة مزرعة الدواجن التى أهداها له والده بعد التخرج.

التقت عدن قبل أيام قليلة بالفتاة المرهرهة وتحدثت معها كثيرًا لكنها لم تحصل منها على معلومات مفيدة. والسبب فى ذلك يعود إلى تحفظ عدن وبغضها لهذه الزميلة التى هى تعتبر فى نظرها متكبرة جدًا ومريبة. والحقيقة أن كل واحدة من الفتاتين لديها موقف متحفظ تجاه الأخرى. وقبل ذلك الوقت وفى أثناء فترة الامتحانات كانت الزميلات يجلسن في الكافيتريا ويتحدثن عن شخص ما، فقالت إحداهن:

يحبها ؟؟ لا لا مش معقول

وعاجلتها أخرى بالسؤال لما سمعت العبارة

وصاحبتنا؟

ولم تجب لا تلك الفتاة ولا أى من الفتيات الأخريات على الأسئلة. وفى تلك اللحظات كانت عدن تقف بالقرب منهن فخمنت الإجابة

لكنها لم تجرؤ على المشاركة فى الحوار لكى تقف على بقية تفاصيل القصة.

مرة أخرى ملت من التفكير فطفقت تستمع إلى أغنية إثيوبية من تلك الأثيرات عند حمدى. وكثيرًا ما كان الحبيب يسألها عن معانى الكلمات فتقوم بدورها بإيكال المهمة إلى أمها، وقد ساعدها ذلك العمل على تعلم الأمهرية لغة أهلها. فى ذلك الوقت كان حمدى يسرع فى مشيه فسال منه العرق الكثير فتوقف فمسحه ثم أدخل المنديل بسرعة فى إبطه. وحين قرب يده من أنفه تبسم ومسح بكفه على بنطاله. وأخيرًا عدل من هندامه ومضى فى طريقه.

عندما اقترب ألفاها تصيح وتحتفل به وتعدو نحوه وحين وصلت قفزت لتعانقه وتشبك ساعديها حول ظهره. كان فى تلك اللحظة يحملها كعادته ويثبتها جيدًا حتى لا تسقط على الأرض. كانت تعلم أنه قادر على حملها لأنها رشيقة قصيرة ولأن لديه يدين غليظتين قويتين وأرجله طويلة بدينة ثابتة. قبلته فى خده وعنقه وضغطت جسمها عليه بعنف ومسحت على ظهره عدة مرات. ولما أنزلها على الأرض وجدها تضع شاله على كتفها. داعبته وأزالت الشال وظلت ممسكة به ثم أشارت إلى الفستان وأفردته لكنه ظل ممسكًا عن التعليق فغضبت منه حتى احمرت عيناها الجميلتان. اعتذر كثيرًا ثم انحنى وقبل جبينها وسارا معًا.

جلس الحبيبان فأغدق حمدى على فتاته الإطراء وأفاض فى تعبيره عن إعجابه بالفستان. والفستان هو إثيوبى تقليدى ناصع البياض ويحتوى على شريط أزرق فى أعلاه والشريط مطرز بأشكال هندسية وأيقونات رسمت بخيوط ذهبية وفى الأسفل أشرطة أخرى مزينة برسوم لطيور مختلفة وأدوات صيد. وكانت عدن تستمع إليه وتتلذذ بحديثه الحلو. وهى تعلم أنه فصيح اللسان ويجيد اختيار عبارات المجاملة وكذلك تعلم أن له معجبات كثر.

طلبت الأكل فأحضر وبعد دقائق قليلة جاءت فتاة بدينة تلبس عباءة ذات لون بيجى فاقع وتغطى وجهها بنقاب أسود. سلمت فرد عليها حمدى قائلا:

أهلا نازلى.. تفضلى

شكرًا

جلست وأشارت إلى أسرتها التى كانت تجلس على مسافة ليست بعيدة منهم. وعلى العكس من هندامها المستحدث كانت نازلى التركية تلبس فى الجامعة فساتين أوروبية عادية وتترك شعرها الأشقر القامق الجميل يتهدل على كتفها البض. وربما كانت تريد بلبس الزى الدينى إرضاء أبيها المتشدد فى أمور الدين. لكن الذى حير عدن هو سهولة تعرف حمدى عليها وهى تضع النقاب. ولاحظت الإثيوبية أن عيني نازلى العسليتين أصبحتا أكثر إشراقًا وسحرًا حين مالت

لتستمع إلى حديث حمدى. وأقنعت عدن نفسها بأن أثر التواصل الحميمى لم يؤثر عليها ومع ذلك لعنت التركية فى دواخلها كثيرًا وقالت فى سرها:

منافقة منافقة

ومع إبداء عدن لمشاعر الامتعاض الواضحة المعالم إلا أن الفتاة التركية تمسكت ببرود أعصاب نادر. وفى الوقت الذى وجدت فيه فرصة مناسبة طرحت على حمدى نفس سؤالها القديم وهو سؤال يتعلق بموضوع فى مادة التشريح. واغتنم الرجل الفرصة فأجابها باستفاضة ثم سألها عن جدية عزمها على أداء سنة الامتياز في تركيا. وقبل أن تسترسل فى الحديث رجعت نازلى إلى أسرتها ثم بسرعة أبت راجعة..

كان حمدى يناديها ناز. وفى لحظة ما شعر الرجل بأنه أوفى فى شرحه لكن نازلى أصرت على مط النقاش بإضافة أسئلة فرعية. ولما استمر النقاش وتشعبت بنوده أبدت عدن استيائها الشديد خاصة أنها تؤمن تمامًا بأن فهمها للمادة يفوق فهم الاثنين مجتمعين. والأمر الأكثر إزعاجًا لها هو أن تظل التركية البدينة واقفة تراقب وهما جالسين يأكلان. وبعد تردد اعتدلت عدن فى جلستها وتبسمت لما شعرت أنها مهيأة تمامًا للنقاش. لكن الثنائى لم يترك لها أى فرصة فتراجعت عن خطتها وانهمكت فى الأكل.

حاولت عدن أن تسرع فى الأكل لكنها عجزت. كانت تضع قطع دجاج الزيغنى فى فمها وتضغط عليها بأسنانها وتظن أنها تستسيغها ثم تعود وتلوكها وتلوكها وحين تشعر أن الوقت مناسب جدا تجد أنها لا تقدر على البلع. احتارت فى حالها وفكرت فى أن عملا شيطانيا قد أصابها. وفكرت وفكرت وتدبرت أمرها لكنها لم تهتد إلى إجابة شافية. هى تعلم علم اليقين أنها تحب الزيغنى الإثيوبى حبا جما، تماما كحب حمدى له. وهى تعلم أن الطعام أصيل وشهى لكنه أصبح فجأة عصى على البلع.

أخيرًا كفت الشابة الصغيرة عن المحاولات. وشربت ماء كثيرًا وجعلت تستمع إلى ألبوم يحتوى على خليط من الأغانى الإثيوبية والسودانية يؤديها مغنى سودانى مشهور. وبالمثل كان المغنى بالكاد يجيد نطق الكلمات الأمهرية. وكانت عدن ترسم ابتسامات عذبة وضاءة وتتمايل مع الإيقاع وتهز كتفيها هزات سريعة وفى نفس الوقت كانت تراقب نازلى بين الفينة والأخرى. وبعد مدة ليست بالقصيرة أعلنت التركية البدينة عزمها على المغادرة فشكرتهما ثم تحركت ببطء. وفى منتصف الطريق استدارت وقالت لحمدى:

لا تنسَ

لاحظت خطيبته أنه لم يصدر أى رد فعل حول الذى لا يجوز أن ينساه بل ظل صامتًا يتابع التركية بنظراته طوال الوقت حتى وصلت

وانحشرت بين أسرتها

على العكس من عدن المولودة فى الخرطوم فإن نازلى تمكنت من إجادة اللغة العربية فى فترة وجيزة وقد ساعدها على ذلك حبها للأدب العربى. وهى انتقلت إلى الخرطوم بعد أن أكملت المرحلة الثانوية فى تركيا. لكن الذى حير عدن هو بيت الشعر المنقوش على خمار الفتاة المرهرهة. وحين انتبهت إلى خطيبها لكى تسأله وجدته منهمكًا جدًا فى الأكل فعادت إلى خلوتها وأغمضت عينيها وضغطت عليهما. كانت فى تلك الأثناء تفكر فى حل مناسب لمشكلتها وفى لحظة ما تحاورت مع نفسها وقالت فى سرها:

لا شيء فيها مميز، لا شيء البتة. نعم هى بيضاء حلوة ذات عيون عسلية جذابة ومرهرهة يعجب بها رجال السودان. نعم تعاملها جيد لكن خطابها رسمى وجامد وماسخ. ومع كل الذى يعجب الرجال فهي ثقيلة الدم غير جذابة وهى كذلك مجرد كتلة شحوم متحركة ومنافقة جدًا

لما فرغ حمدي من الأكل وجد أنها تقف أمامه وهى على وشك المغادرة. هم بالحديث معها لكن جاء ذلك القرار بعد فوات الأوان. ولولا أنه جفل فى الوقت المناسب لكانت الإصابة قد حدثت فى وجهه ومع ذلك لم يسلم صدره من فعل القهوة الحارة التى دلقتها خطيبته عليه. وفى لحظة تجمع الناس حوله كانت عدن قد اقتربت

من باب الخروج.

توقفت عند الباب، وفكرت فى الأمر مرة ومرة أخرى، وبعد حين استدارت ببطء شديد. بالطبع ستحدث صديقاتها بعد ذلك بأن واجبها كطبيبة كان يحتم عليها أن تؤوب من أجل معالجة الرجل. وقبل أن تصل إلى مسرح الحدث كانت تركز بصرها جيدًا فى بيت الشعر المنقوش بخيوط ذهبية براقة على نقاب نازلى.

إنْ تُتْهِمى فتِهامَةٌ وطَنى أوْ تُنْجِدى إنَّ الهوى نَجْدُ

حين وصلت عدن إلى المكان شعرت بها نازلى فاستدارت ببطء راسمة ابتسامة ساحرة مثيرة على وجهها الأبيض الجميل الذى رفعت عنه النقاب. وكانت التركية لحظتها تمسك بالسماعة وتهم بوضعها على صدر حمدى.

وعل وبجعة

كانت تراقب المكان بدقة من خلال الشرفة تمامًا مثل صياد نصب شراكه وانتظر. وبسرعة هرولت إلى الداخل ثم صعدت إلى الكنبة بقفزة مميزة لتستقر بالقرب من أبيها. ووضعت ذراعها الممتلئ بالفرحة على كتفه ثم جذبت رأسه بيدها اليسرى وقبلته على خده. وحين همست فى أذنه رسم ابتسامة حلوة عريضة على وجهه البيضاوى الأسمر ثم أومأ برأسه معطيًا موافقته على اقتراحها المميز. ولم تسمح الطفلة لنفسها بإضاعة الوقت إذ قفزت بسرعة وهرولت نحو غرفتها ذات الألعاب المبعثرة. وكانت تدفع بسرعة ما يعترض طريقها وأحيانًا كانت تركل بعض الأشياء.

حين دخلت الأم وجدتها منهمكة في تجهيز ما تحتاجه فى الرحلة التى تقررت فى غيابها. وقامت الأم بمساعدة طفلتها عسى أن تستطيع الأسرة الصغيرة أن تغادر بسرعة قبل أن تتبدل حالة الطقس. ولما وصلت الأسرة إلى المنتزه الكائن في مركز المدينة وجدت أن المكان كان يعج بالكثير من الناس. والناس في هذه المدينة قد تعودوا على

الذهاب إليه لأن به وسائل كافية للترفيه والسياحة إضافة إلى المتاجر والمطاعم الكثيرة المنتشرة بالقرب منه.

كانت السماء قد أمسكت لتوها عن إنزال الجليد، وكان الثلاثى يلبس معاطف من الصوف بنية اللون ويلبسون قفازات سوداء غير أن كل فرد منهم قد اختار لنفسه شالًا مختلفًا. والطفلة كانت تضع شالًا يشبه فى رسمه جلد الفهد. وتوقف الجميع بالقرب من البحيرة الصناعية الصغيرة ثم تركهما الأب ورجع لكى يجلب أشياء من السيارة. وعندما عاد هرولت الصغيرة مسرعة نحوه وخطفت منه أحد الوعول الجبلية. وقبل أن يهم بالتحرك من جديد أعطاها الأب بقية حاجياتها.

وضعت الوعول جانبًا ثم جعلت تملأ الجردل الصغير بالجليد وتفرغه فى مكان البناء. كانت تستخدم مجرفة صغيرة وأزميرًا لكى تجمع المادة الكافية التى تمكنها من أن تنحت مسرحًا صغيرًا. وحين فرغت من عملها كدست العدة خلف المسرح. وتراجعت إلى الخلف حتى اطمأنت إلى وضعها فألقت نظرة فاحصة أثلجت صدرها ثم قامت بوضع أعلام ولمبات وشرائط زينة على المسرح وحوله فأصبح المكان جذابًا. وعلى الرغم من بعض الالتباس عند الطفلة إلا أن الزينة جعلت من مشروع الجليد ما يشبه إلى حد كبير المسرح الحقيقى. وكان تشجيع الوالدين الكثير يزيد من حماس الصغيرة باستمرار. وأخيرًا

هنأها بالإنجاز العظيم وأفرطا فى الإطراء فأدركت بأنهما يضمران نية الابتعاد عنها.

أدارت الصغيرة جهاز التسجيل الوردى فانطلقت الموسيقى الراقصة القوية. ووجد الوالدان أن الطفلة وجدت ضالتها فى الملهى الصغير الذى صنعته فانشغلا عنها وابتعدا ثم ابتعدا أكثر فأكثر. في تلك الأثناء اقترب بعض السياح من المكان وشرع بعضهم فى أخذ الصور التذكارية بالقرب من المسرح. أما الطفلة فكانت مشغولة بالإشراف على مجموعة الراقصين الذين وضعتهم على المسرح.

هز الرجل فرع الشجرة فتساقط الجليد زرافات على شعر زوجته وملابسها. وبالرغم من أن قطع الثلج البيضاء قد رسمت على الشعر الذهبى لوحة بديعة وجذابة إلا أن الزوجة لم تك راضية تمامًا عن المزاح. وقام الزوج بنفض الجليد عن شعرها ثم جفف يديه ومسح بطرف يده على خدها. وضحكت لأن تمثيل الغضب انطلى عليه بسهولة فدفعها بعيدا عنه ثم ضحك ثم ضحك الاثنان كثيرا وتعانقا. فجأة استأذنت منه وذهبت إلى مكان قريب من سور المنتزه. وظل ينظر إليها ويتخيلها إلى أن قطع نداء ابنته المتكرر حبل أفكاره.

كان يرسم لها فى خياله لوحة جميلة جدًا فيقوم بمحوها فيرسم لوحة أجمل منها ويكرر العمل من جديد. وحين ابتعدت الشابة الفاتنة وغابت عن ناظريه حسب الرجل أن أنوار المنتزه الكثيرة

ولمبات الشوارع الساطعة وأشجار عيد الميلاد المصنوعة من البلور الناصع البديع والمزينة باللمبات البيضاء والملونة وأضواء السيارات الدافئة وإشارات المرور النزقة والأشجار المكسوة بالجليد، كلها أصبحت تتغزل فى زوجته. وعادت الزوجة وهي تمشى على مهل وتقترب منه مترددة وتتبسم. وفى اللحظة التى شرع فيها بالهروب أدرك أن الوقت ليس فى صالحه فجلس على الأرض حتى يستطيع تقليل الخسائر إلى الحد الأدنى. ومع كل الاحتياطات التى وضعها لم ينجح أن يتفادى كرة الجليد الكبيرة التى تحطمت على رأسه.

حين أكمل الرجل تجهيز كرة من الجليد أكبر من كرة زوجته تمطى واستدار حوله وهمهم فى خفوت راضيًا عن نفسه. وأمسك بالكرة واستدار لكن الزوجة كانت قد تمكنت من الهرب لتحتمى بابنتها. ولما وضع الكرة على الأرض هرعت إليه وأحاطته بذراعيها وقبلته. ونزعت شالها الزيتونى وأزالت به البلل من على وجهه وشعره الأسود المجعد. وغطت رأسه ثم قبلته من جديد. وبرفق شد بكفيه على خديها الناعمين ثم قبلها وقال لها:

أحبك أحبك

وأنشأت تردد عبارات سريعة مرتبكة. وأدرك ما تريده فقبلها مرة أخرى وأخذها فى حضنه. وقال لها:

نعم تسع سنوات زواج لكنها مرت سريعا.

أقصد الطفل الثانى.

مسح بيديه الغليظتين على شعرها واحتضنها ثم قال:

سيأتى بمشيئة الرب فلسنا على عجلة.

كان فى ذلك الوقت ينظر إلى عينيها الواسعتين اللامعتين ويود لو أنه يقدر على أن يمحو آثار الحزن الساكن فيهما.

على الرغم من أن الجليد قد غطى على معظم سطح البحيرة الصغيرة إلا أن الطيور كانت قد وجدت طريقها إلى بعض الفتحات فذهبت في أثناء النهار لكى تبحث عن رزق لها. وحين عم الظلام لم يتبق غير القليل من الحيوانات فى المنطقة. ولأن الفتاة كانت مشغولة بتشجيع الوعول على الرقص فإنها لم تنتبه للبجعة التى انسلت من البحيرة وتحركت بصعوبة كبيرة متفادية حركة الناس حتى استقرت خلف المسرح. ولما أدارت جهاز الموسيقى ازداد الحماس وأصبح البعض يصفق بشدة وهمة عالية ويستحث الوعول على الرقص مع الطفلة. ورقصت الوعول وتحمس بعض المراقبين للفكرة وشاركوا بالرقص والتصفير والهتاف. وحين زاد الصياح وعلت الموسيقى وارتفعت حمى الرقص لج أحد الحاضرين فى حض البجعة ثم أرغمها على الدخول إلى ساحة الرقص.

حاولت البجعة الخروج لكن سدت كل الطرق فى وجهها، ولا غرو فقد عج المكان بالناس من أطفال وسكارى ومعتوهين وعابرى

سبيل غير آبهين بنتائج الذى سيحدث بعد حين. وبدأت البجعة فى محاولات جادة للهرب فانعطفت ذات اليمين ففشلت ثم ذات الشمال وهى تسرع الخطى لكن دون جدوى هذه المرة. وزادت من سرعتها وارتفع دأبها رغم الألم الظاهر فى رجليها لكنها لم تحقق أى نجاح. وأخيرا تعبت المسكينة فرقدت بالقرب من المسرح.

ازداد عدد الحاضرين وازداد تصفيقهم ورقصهم وهياجهم وصاح بعضهم قائلا:

راب ... راب ... راب

واستدارت الطفلة نحو الجمهور وأومأت برأسها موافقة وتبسمت بعذوبة مبهجة وتحركت نحو الجهاز وأدارت أغنية راب ذات إيقاع سريع وقوى. وأصبح الاحتفال يحمل نكهة مميزة. وتحمست الطفلة أكثر فأكثر ووقفت فى مواجهة الجمهور وأصبحت تردد كلمات الأغنية التى تقول:

برزت برزت برزت
بزغ العيد
ونزل الجليد
واحتشد الجديد
واكتمل النشيد
فليرقص الجميع

ليرقص الجميع
ليرقص الجميع
رقصت رقصت رقصت
رقصت طيور
لتنشر الحبور
وتسمو بالشعور
وتعكس الضمور
فليرقص الجميع
ليرقص الجميع
ليرقص الجميع

ازداد تدفق الناس وتجمهرهم فى المكان وتكاملت أصوات غنائهم وازداد تجاوبهم مع الطفلة التى كانت تحرك يديها وتحضهم لكى يرفعوا أصواتهم. وانطلق المزيد من الهتافات والتصفير. وكان كل الناس يرددون كلمات الأغنية الساحرة. وانبرى بعض السياح لأخذ الصور وأخذ مقاطع بكاميرات الفيديو.

وحاولت البطة من جديد أن تجد لها مخرجًا من المأزق الكبير. ومن جديد لم تفلح المسكينة. وحين استدارت حولها تمنت أن تصبح وعلا بلا روح أو أن يشعر شخص ما بما تعانيه من الألم والجوع ولسعات البرد الذى أصبح يزداد شدة ورعونة. أما الطفلة فهى في ذلك الوقت

لم تزل تلوح بيدها المكسوة بالقفازة الصوفية وتضرب على الأرض بالبوت الطويل الأنيق. وحين اقترب منها أحد الأطفال شدت بلوزة الصوف ذات اللون البنفسجى الغامق واكتسى وجهها بمزيد من مشاعر الفخر والثناء. وكانت البجعة تراقب الموقف بحذر فنظرت إلى أحد الوعول الذي أشاح بوجهه بعيدًا عنها. وطأطأت البجعة رأسها الوجل والأسى العميق يجثو في عينيها.

مسرعًا وحذرًا غادر الرجل العجوز الرزين مكانه وخطا بصعوبة شديدة لكنه أخيرًا واصل حتى اقترب من الطفلة. وحاول إقناعها بإيقاف الحفل ولما فشل أوقف جهاز الموسيقى عنوة. وفى تلك الأثناء يئس البعض من إرغامه على التراجع وأسرع فى مغادرة المكان. ولأن كل فرد كان مشغولًا بنفسه فإن البجعة لم تجد صعوبة فى الهروب نحو البحيرة. وحين انتبهوا أسرع كل منهم واشترك في مطاردتها بمن فيهم الطفلة التى كانت تجرى سريعا لكى تقترب من البجعة. ولما انتبه الأبوان وجدا أن طفلتهما فى خطر محدق إذ كانت تجرى بسرعة جنونية غير عابئة بأي شىء

أحيانا يقوم أحدهم بعمل ما فيغير مجرى التاريخ كله. وأحيانا يطرأ حادث صغير فيقلب مسرح الأحـداث رأسا على عقب. والعجوز الرزين استطاع أن يبدل الأحداث تبديلًا أسطوريًا.

وأسرع الأب فتمكن من الإمساك بطفلته وكان التعب وقتها

قد أنهكه تمامًا. ومدت الأم ذراعيها ووضعت ابنتها على صدرها واحتضنتها بقوة وهى تبكى. وعلى الجانب الآخر لم يتمكن سوى رجال المطافئ من الدخول إلى البحيرة لكى ينقذوا حياة البجعة التى حملوها إلى عربة الإسعاف

وفى الوقت الذى كانت فيه دموع الفرح تبلل خدود الطفلة كانت الأسئلة تنهمر منها لتستفسر عن مصير المسرح الذى تركته خلفها. وفى السيارة علمت من الأبوين أن المسرح لا محالة سيتم تدميره إما بدهس غير مقصود من الجموع الغفيرة التى جاءت لترصد ما حدث أو بفعل الطبيعة التى لا محالة ستتبدل ولو بعد حين.

سلحفاة

كان يرقد على الكنبة الوردية ممدًا رجليه القويتين ومسندًا رأسه على وسادة كبيرة وثيرة غطت على الجانب الأيسر معظمه. ولما جاءت الفتاة الجميلة ذات القبعة الصوفية البيجية، وضعت كأس الشراب على المنضدة بجانب شرابه، ثم سحبت كرسيًا وجلست قريبا من كتفه. وخلافًا للخارج كانت القاعة دافئة جدًا. وعدل الرجل من وضع جسمه الضخم حتى أصبح مواجهًا للفتاة. وفى البدء أكد لها أنه سيكون محايدًا فى سرده كما كان سابقًا ولن يكثر من التفاصيل ثم زاد على ذلك أنه سيبدأ من جديد فى سرد الأحداث لكى تسهل عليها المتابعة. ولما أومأت بالموافقة تبسم الرجل ثم قال:

تسلق صخرة صلبة ثم توقف حين شعر بأنه قد استقر فى المكان الآمن. وأرخى عضلات جسمه لكى ينعم بفترة راحة قصيرة، تحرك بعدها حتى اقترب من فتحة صغيرة بين صخرتين، فجعل ينظر من خلالها إلى مجموعة من الناس كانوا منهمكين فى حوارات متعددة. واختبر وضع جسمه والمكان حوله فاطمأن إلى استحالة افتضاح

أمره. ولأنه كان واثقًا من نفسه تمام الثقة، فقد أمضى فترة طويلة تمكن فى غضونها من أن يفحص الناس والأشياء التى كانوا يحملونها ويتكهن بما يخططون.

وعلى الرغم من أنه قد فشل فى التعرف على بعض المعدات الحديثة إلا أنه استطاع أن يخمن أوجه استخدامها. لكن أكثر ما كان يشغل ذهنه فى تلك اللحظات هو الفتاة الأنيقة الرشيقة، إذ ساوره الشك المقلق فى أن تكون قد انتبهت لوجوده. وركز بصره فى عينيها بصرامة نادرة فازدادت شكوكه أكثر فأكثر. وفى تلك اللحظات قرر أن ينهى المهمة، فتفحص الناس على عجل والتقط بعض العلامات المهمة ثم انسل بهدوء عائدًا إلى المكان الذى أتى منه.

فى أثناء ذهابه انتبه إلى صوت الفتاة الرشيقة ولم يتبين مقصدها بالضبط من الحديث لأن المسافة كانت بعيدة نسبيًا، لكنه أيقن أن المجموعة كانت تتابع حديثها باهتمام كبير. والمجموعة عبارة عن زمرة تربو على عشرة رجال وامرأتين. وبرغم القيود الطبيعية فقد اجتهد كثيرا لكى يزيد من سرعته وهو يغادر المكان.

عندما ازداد يقين الفتاة الرشيقة من أن مصدقى روايتها هم الأكثرية، أسهبت فى وصف ما شاهدته وزادت عليه أشياء استنبطتها من تقييمها للوضع. وظن نفر من زملائها أنها قد تأثرت بعوامل عدة مثل قلة النوم أو الهلوسة أو الإرهاق الشديد أو الهيام. وشك البعض

فى جل تفاصيل الحكاية فطلبوا منها أن تحدثهم بدقة عن ماهيته. وبسرعة هبت واقفة وعدلت من فستانها الجذاب ثم قالت:

إنه حيوان كبير.

ضحك الجميع وقهقه بعضهم بأصوات عالية وسالت الدموع الكثيرة وعم الهرج لكنهم دهشوا حين ظلت الفتاة واقفة فى مكانها صامدة لا تتزحزح وصامتة تراقب وواثقة ومتماسكة من داخلها. وحين هدأوا أخبرتهم أن الحيوان تحرك مبتعدًا. وكان مبعث هزوهم هو يقينهم بأن المنطقة خالية تماما من الحيوانات الكبيرة. ولأنهم كانوا مدركين لأهمية رحلتهم العلمية، فقد كان كل فرد منهم فى الأسابيع السابقة قد انكب باحثًا فى الكتب والإنترنت، وظلوا على هذه الحال حتى اطمأنوا إلى أنهم قد أوعبوا.

حين انحسرت ضجتهم وهدأوا أخبرهم رئيس فريقهم بأن يحزموا أمتعتهم انتظارًا لمغادرة المكان. ووقف الرئيس الوقور ذو الشعر الأبيض أمام الفريق وحدثهم بأهمية التحرك العاجل وجمع أكبر قدر من المعلومات عن الحيوان وبأن يعدوا أنفسهم للمفاجآت غير السارة. وكان الرجل يعلم بأن الفتاة الرشيقة هى طيبة القلب وجادة ورومانسية فتحرك حتى بلغها ووضع يده على كتفها وحدثها حديثًا طيب خاطرها. وأسهب الرجل بعد ذلك فى سرد تفاصيل خطة التحرك والحديث عن مكامن الخطر.

حين وصل أعضاء الفريق إلى الصخرة وجدوا أن طريدتهم قد ابتعدت كثيرًا على الرغم من بطء حركتها. ونأى أحد الرجال قليلًا عن رفاقه لكى يميز نفسه ثم صاح بصوت عالٍ وهو يردد القول:

رجل غريب الهيئة. رجل غريب الهيئة.

كان يصيح بصوت امتزجت فيه الدهشة مع الخوف. لكن على العكس كانت الفتاة الأخرى تستدير يمنة ويسرة وهى تتبسم وتضحك قبل أن ترد على زميلها بحزم:

لا بل سلحفاة.

حين استدار الرجل نحوها شعر بأنها تؤمن حقًا بما تقول. وهذه الفتاة تختلف تمامًا عن رفيقتها من حيث إنها كثيرة الهزل ومتهورة. وكعادتها لم تنتظر الرد بل غرقت فى الضحك فضحك الجميع على أثر ضحكتها المميزة على الرغم من أن أكثرهم كان خائفًا من المخلوق العجيب. وبرغم الهزل الكثير فقد أصابت الفتاة إلى حد ما لأن المخلوق كان يمشى بطيئًا مثل السلحفاة.

بعد لأى تمكن الرئيس من إعادة جماعته إلى المسار الصحيح فنهضوا مسرعين فى أثر المخلوق. وواصلوا بجد مطاردتهم له لكن فريقًا منهم كان خائفًا يترقب وكان فريق آخر منهمكًا فى التصوير. وكان الحيوان يمشى على أربعة وأحيانًا كان يقفز مثل الكنقرو. وفى أحيان أخرى كان يقلد حركة الدودة عندما تسحب مؤخرة جسمها

إلى الأمام والمقدمة ثابتة ثم تسحب المقدمة إلى الأمام فى الوقت الذى تثبت فيه المؤخرة، ثم تعيد الكرة من جديد. وساعد الحيوان تكوين جسمه على السرعة فى التسلق فتمكن خلال مدة قصيرة من أن يبلغ القمة.

وإذا اعتمدنا على المعيار الأفقى فإن المسافة التى كانت تفصل الحيوان عن مجموعة الفريق العلمى ليست بالبعيدة لكن كان يتحتم عليهم عمليًا أن ينزلوا إلى أسفل المرتفع ثم يصعدوا إلى القمة الأخرى. والحيوان يدرك تمامًا تلك الحقيقة لذلك هب واقفًا وتمطى ثم رسم بسمة غريبة ساخرة وعريضة على وجهه. ومط عنقه إلى ناحية اليمين ثم إلى اليسار ثم إلى الخلف ثم إلى الأمام فإلى الخلف مرة أخرى ثم تركه حرا يتأرجح. كانت حركة العنق وهو يتأرجح تشبه بالضبط حركة الزنبرك. وحين ظل العنق يتأرجح لعدة دقائق أصابت الفتاة المتهورة حالة إغماء

بعد إجهاد نفسى وبدنى تمكنوا من ترتيب أاوضاعهم. وجمعوا بعد ذلك معلومات بواسطة المناظير والكاميرات ثم انهمكوا فى تحليلها. لكنهم لم يجمعوا أمرهم على رأى موحد حول ماهية الحيوان فتركوا المسألة مفتوحة. وهو كان يعرف نفسه ويعرف بالضبط ما حدث له لذلك لم يعر حديثهم أى اهتمام بل تركهم يتجادلون وذهب قاصدًا مكانًا آمنًا لكى يختبئ فيه. ولأنه كان يعلم أنهم سيجدون

مكانه عاجلًا أم آجلًا، كان فكره مشغولًا باستمرار بالبحث عن كل المخارج والخطط.

وكان المخلوق قد أمضى عقدين ونيف فى ذلك المكان بعد أن وجد أنه الأفضل فى تلك السلسلة من الجبال الشاهقة. والذى ساعده على الاسقرار هو غنى المنطقة بالفواكه البرية والخضر والأعشاب الطبيعية الغنية بالفيتامينات والمعادن وكل الأغذية المفيدة لصحة الجسم وبنائه ووقايته من الأمراض. وربما يكون المخلوق قد أفاض فى استهلاك بعض الأغذية، الأمر الذى أثر تأثيرًا كبيرا فى التغيير الواضح الذى أصاب جسمه.

فى الوقت الذى شرع فيه البعض يهيئ نفسه للخطوة التالية تسلل المخلوق إلى أن دخل نفقا قاده إلى كهفه الذى اعتاد أن ينام فيه. وأسند ظهره على صخرة ملساء ثم وضع مؤخرة رأسه على يديه المشبوكتين. وكان يعلم بأنها مجرد فترة راحة قصيرة جدًا لأن مطارديه سيأتون إلى المكان لا محالة. وكان الرئيس فى ذلك الوقت قد نجح فى ضبط النقاش وتحييد المنفلتين، حيث كان البعض يرى أن القبض على المخلوق حيًا أو ميتًا هو الهدف عين الهدف. وبعد وقت قصير من تدبر الأمر وزعت المهام وأصبح كل فرد مدركًا لما ينتظر منه وواعيًا لمكامن الخطر والخدع. واستقام الرئيس واقفًا وقال لهم بوضوح تام:

لا أريد أن أفقد أى فرد منكم. لا تتهوروا

وما إن أكمل حديثه حتى تحركوا وأسرعوا فى مشيهم فتوغلوا داخل النفق لكنهم شعروا بأنه أصبح ضيقًا جدًا ومظلمًا وقليل الارتفاع. وكانوا يخلدون إلى الراحة بين الفينة والأخرى نظرًا للإجهاد الكبير الناتج عن الحركة بظهور محنية. ولما سمع الطريد أصواتهم غادر مكانه.

هرب المخلوق بسهولة نادرة إلى قمة أخرى فى الجبل. وكان يأمل بأن ينجح فى تضليل المجموعة إلى حين حلول الظلام. وكان خائفًا جدًا منهم لأنه اعتقد أن هم الجماعة الرئيسى هو تحقيق إنجاز علمى حتى لو أدى ذلك إلى إزهاق روحه. وهو يعتقد كذلك بأن مصيره سيكون كمصير فأر التجارب لأن هؤلاء الناس جشعون أنانيون ذوو نفوس مجرمة وإن تدثروا بثياب العلم. وكان فى نفس الوقت يأمل أن يجد مطارديه شيئًا آخر يشبع شبق البحث العلمى عندهم، ولو إلى حين

حين خرج الفوج الأول من الفريق العلمى وجدوا أن الحيوان قد تمكن من الصعود إلى قمة أخرى. وفى هذه المرة غيروا الخطة فوزعوا همهم بين جمع المعلومات وتحليلها ومواصلة الملاحقة. واتضح لهم أنه يستخدم تقنيات عدة للحركة مثل الزحف والحبو والقفز والمشى على أربعة أرجل أو رجلين اثنين. أما تركيب جسمه فكان غاية فى الغرابة.

كان الحيوان نحيفًا جدًا يكاد الناظر إليه يشعر بأنه عبارة عن

مجموعة عظام يكسوها جلد سميك جدًا. وكانت لوحتا الكتفين كبيرتين غاية الكبر ومحدبتين ونفس الشيء هو حال القفص الصدرى. والكتفان مع القفص الصدرى سويًا يشبهان تماما شكل النصف السفلى من مخروط. أما عظام الحوض فهى كذلك كبرت واستدارت حتى حاكت نصف الأسطوانة فى شكلها. ومجمل القول أن جسم المخلوق الأعلى عبارة عن كرة فى القمة مثبتة على زنبرك جزء منه مثبت على نصف مخروط به يدان قصيرتان قويتان مرنتان. والجزء الأسفل من الجسم متصل بالأعلى بواسطة الزنبرك وهذا الجزء عبارة عن نصف أسطوانة مثبت عليها أرجل قصيرة مرنة تستطيع الحركة فى جميع الاتجاهات. وبرغم الهيئة الغريبة فإن عزيمتهم فى ملاحقة الحيوان لم تتزحزح أبدًا لأنهم كانوا مدركين تمامًا أنه بطيء الحركة وجبان.

كانوا كلما اقتربوا من الحيوان كلما ازدادوا قناعة بأنه حقًا مخلوق غريب يشبه الرجل فى التفاصيل العامة لتركيب الجسم. أما هو فكان مهتمًا بأمور أخرى أهمها أن يجد مكانًا يختبئ فيه حتى ينفض الناس عنه. وهو يعلم أنه لا يستطيع العيش فى مكان آخر نظرًا لاعتماده على النباتات التى لا توجد إلا فى ذلك المكان وكذلك للقيود البيئية والجسمانية التي جلبها على نفسه. وفى لحظة انشغالهم بالأمور العلمية تمكن من الهرب مرة أخرى. لكنهم كانوا أذكى منه هذه المرة.

قبضوا عليه فوعدهم بأن يخبرهم بحكايته فأعطوه الأمان. وبالطبع لم يصدقه إلا القليل منهم. وحتى أنت ما زلت ترفضين الحكاية وتعتقدين أنه سلحفاة غريبة وليس غيلم كما قال الرجال وليس سلحفاة لعوبة كما قالت من قبل الفتاة المتهورة.

كان طالبًا عبقريًا فى السنة الثانية بقسم الأحياء فى الجامعة لكنه تركها وذهب إلى تلك المنطقة الجبلية النائية. كان دافعه أن المجتمع أصبح أنانيا جشعا لا يحس بمسؤوليته فى الحفاظ على موارد الأرض وعلى البيئة النظيفة. وعندما نجح فى تجربته أصبح يفتخر بإنجازه وأصبح يحدث نفسه دائمًا بأن المرء يستطيع أن يعتمد اعتمادا كليا على نظام غذائى بديل يحتوى على كل ما يحتاجه الجسم من مواد بناء وطاقة ووقاية من الأمراض وفى نفس الوقت لا يسهم هذا النظام فى تلوث البيئة. ولكى تكون القطيعة مع المجتمع نهائية، درس الرجل علم النفس وتعمق فيه ثم مارس تمارين ذهنية ونفسية ساعدته على محو تاريخه تمامًا.

وعلى الرغم من رؤيته للشمس والقمر والنجوم كل يوم فقد أنكر الزمن وادعى أنه مفهوم وضعه البشر بصورة اعتباطية. وأصبح لا يحس بالزمن ولا يعرف غير المكان الذي يسكن فيه. وحين واجهته مجموعة البحث العلمى وطاردته وقبضت عليه وتحاورت معه تمكن تدريجيا من استعادة بعض الذاكرة.

هل الزمن شيء محسوس؟ بالنسبة للغيلم فإن التفكير فى الزمن أمر تافه. وهو لم يتأثر بعامل الوقت لأنه من ناحية كان يتحرك ببطء شديد وفى مساحة محدودة جدًا ومن ناحية أخرى فإنه قد رفض وانقطع تمامًا عن عالم البشر، فلا أعياد ميلاد ولا علاوات سنوية ولا دوام رسمى ولا احتفالات بمناسبات قومية. ولو كان يتحرك بنفس السرعة التى تحرك بها بعد أن شعر بالمطاردة لكان له شعور آخر بالزمن. أن الزمن مخلوق هلامى نصنعه فى ذاكرتنا بلا جسم ولا طعم ولا لون ولا رائحة وقد نلبسه ثوب السعادة فيرقصنا الطرب أو نلبسه ثوب التعاسة فيقعدنا الكرب. هكذا كان يردد.

غرز الرجل كوعه فى جسم الكنبة ثم استدار نحو الفتاة لكى يلاحظ رد فعلها لكنه وجدها مشغولة بتدوين الملاحظات على كراسة صغيرة أنيقة. ولما هم بالنهوض وجد أن الفتاة ذات القبعة البيجية كانت تضع قدميها الرقيقتين على الأريكة وتكاد تلصقهما بفخذه الضخم. ورسم ابتسامة عميقة المعنى على وجهه فأزاح رجلى الفتاة ثم اعتدل واقفًا ثم اتجه نحو دورة المياه لكنه توقف فجأة فى منتصف الطريق واستدار ثم قال لها:

تذكرى ... أنه رجل غريب قد تحور جسمه لكنه ليس سلحفاة نادرة كما تعتقدين

لعنة التغيير

حين وافقت زوجته على اقتراح التغيير شعر بأن نعيم الدنيا عينه قد جعل يتسرب إلى كل ذرة من جسمه ويرويه فأصبح يتقلب فى سريره كمن ألمت به فجأة حمى الرومانسية المفرطة. وكان موسى يحبها حبا خرافيا حظى بشهرة مميزة شملت قريته وكل القرى المجاورة لها. وكانت الزوجة كثيرة الشكوى فى السنوات الأخيرة، ليس بسبب عدم الانجاب فقط، لكنها أحست بانها قد أصبحت أكثر تمدنًا وأن نمط حياتها يجب أن يتغير

وكان والد جاموسة عاملًا حرًا طموحًا وجرب كثيرًا من المهن فحصل أخيرًا على وظيفة حرفى فى شركة أجنبية كبيرة لقطع الأخشاب افتتحت لها فرعًا فى القرية. ومنذ لحظة تعيين الرجل فى تلك المهنة أصبح موسى يستمع إلى نصائحه كلها. وكانت النصائح والأفكار الجديدة التى يستعيرها الرجل من زملائه تطرق على أذنى موسى باستمرار فتدفعه دفعًا قويًا نحو التجديد. وكان موسى شديد الحماس لكنه لم يك واعيًا تمامًا بكل النتائج المتوقعة من جراء تطبيق

أفكار التغيير على أرض الواقع.

خرجا معًا بعد تناول وجبة الصباح، أو الصبوح كما تسميها جاموسة، وافترقا فى منتصف الطريق، هى ذهبت إلى بيت أبيها حسب اقتراحه، وهو مضى فى طريقه إلى مكان عمله. وكان موسى بناء ماهرًا ساعده جسمه الضخم القوى على تحمل مشاق العمل. وبعد أن ابتعدت جاموسة عدة أمتار توقفت واستدارت بصعوبة لكى تمعن النظر فى عنق زوجها الضخم وكتفه العريض ورجليه البدينتين المتباعدتين. ومنذ أن شرعا فى الخروج وحتى لحظة وصولهما إلى آخر نقطة فى فناء الدار كانت تغازله بشكل مفضوح وتضرب على فخذيه باستمرار.

يقولون إنها استطاعت أن تصنع معجزة حين أصبحت تهيم به كل الهيام الخرافى بعد أن كانت معتدة بنفسها إلى حد الغرور وشرسة يهابها شباب القرية. وبدوره أدهش موسى كل الناس حين استطاع أن يتحمل مزاجها المتقلب ونزوعها إلى حسم المشاكل باستخدام العنف. وبعد أربع سنوات من الزواج تحدث رجال القرية عن الزوج بإعجاب شديد ومدحوه لأنه استطاع ترويض المرأة الشرسة التى كانت تجعل فرائصهم ترتعد.

كان لديه عزم صارم لكنه أمسك بزمام الرغبة وشد عليه شدًا محكمًا حتى جثت النية وهمدت. ونهض من الفراش فجمع صلاتى المغرب

والعشاء ثم توجه إلى السرير من جديد. وأغمض عينيه وأرخى يديه المتعبتين ثم استسلم إلى حبل أفكار طويل قاده إلى النوم. وبعد نصف ساعة صحا فتذكر أن عليه أن ينجز أمرًا ما فقام من سريره فأضاء الغرفة ثم وقف أمام المرآة. وذهبت أفكاره مذاهب شتى فجعل ينظر إلى صدره وإلى الوشم الذى كانت زوجته تقبله كثيرًا وتمسك بتلك العضلة وتضغط عليها لكى ترضخ وتنحشر بين شفتيها. ووضع يده على صورة الوشم فى المرآة ثم قبل أصابعه عدة مرات. والوشم عبارة عن رأس وطواط أغر ليس به فم، والرأس مرسوم على خلفية تشبه سحابة بيضاء أطرافها داكنة اللون، والسحابة تأخذ شكلا تقريبيًا لنصف دائرة، ويقع الوشم على بعد عرض أصبعين تحت عظم الترقوة الأيسر. وحاول موسى أن يضع شفتيه على صدره ولما فشل وضع أصابع يده اليمنى على الوشم. وكان فى تلك اللحظة يحدق فى المرآة قبل أن يضع الأصابع ويضغط بها على شفتيه. وحين سمع فرقعة صوت القبلة التفت ذات اليمين وذات الشمال ثم ابتسم وأدام التبسم قبل أن يؤوب عائدًا إلى السرير.

على الرغم من أنها كانت مسرعة جدًا فى مشيها إلا أنها كانت تغمض عينيها أحيانًا وتحلم. وحلم جاموسة لم يك فى متعة حصاد التو البعيد المنال بالنسبة للغير ولا هو فى رفد العزيز بالحليب الغزير. وحلمها لا هو حضور كرنفالى لخيوط غد ستنبثق فى الأفق البعيد

منسلة من بين ثنايا سحائب نيرات قد يكون فى حنايا صدورهن برق صادق أو خلب، إنما هو فى بركات التغيير كما كانت تعتقد. وهى كانت تؤمن بأن البركات الكثيرة ستتحقق لا محالة. وكانت تعشم بأن يتحقق فى الحال كل ما يؤكد تفاصيل ما رسمته فى خيالها بالأمس.

كانت جاموسة تعدو سريعا جدا وهى متجهة صوبه وتضرب الأرض برجليها حتى يصعد الغبار الكثيف. ولاحظ أنها كانت تحاكى تمامًا آلة ردم طريق القرية الرئيسى التى كانت تزيل كل شىء يعترض طريقها ولو كان شجرة. وكانت جاموسة كذلك تجرف الأشياء الصغيرة والكبيرة والخطرة والمسالمة وتستخدم فى ذلك يديها وساقيها وفخذها الضخم. ووصلت أخيرا فوجدته فاردا ذراعيه ومستعدا استعدادا كاملا لكى يحتضنها ويقبلها وهى بدورها كانت تريد ذلك وترسم البسمة الصادقة على وجهها وتجيل ببصرها فى أجزاء جسمه كله. وظل ينظر إلى عينيها الواسعتين السوداوين ويتبسم. ومرت الدقائق العديدة فأصبحت رغبته لا تزداد إلا قوة. وفى الوقت الذى اقتربت كثيرًا جدًا منه حلت بالمكان سحابة رمادية داكنة حجبت عنه كل كائن كانت تشهده عيناه. وكان في ذلك الوقت يحرك رأسه يمنة وكاد أن يصحو من نومه.

فى الخـارج كانت جاموسة تمشى بسرعة مجنونة ورجلاها

متباعدتان بشكل واضح. وكانت تقذف بيديها الغليظتين بالتوالى إلى الخلف كأنها تريد أن تسدد ضربات قوية إلى كل من يسير خلفها. وفتحت باب الحديد الكبير ثم ركلته إلى الخلف بقدمها الأيمن حتى سمع صوت الضربة من مسافات بعيدة. زوجها كذلك تعود أن يمشى بسرعة ويباعد بين رجليه لكن يديه لا تكونان إلا ثابتتين. ومباشرة بعد عبورها الفناء دخلت إلى غرفة النوم فوجدتها مضاءة. كان موسى فى ذلك الوقت نائما على ظهره ويحاول أن يحرك يديه. وبصعوبة كبيرة فتح فمه واسعا وحرك شفتيه محاولًا الكلام لكن بعد دقائق وبصعوبة شديدة وبصوت أشبه بالهمهمة قال:

هيييه

ولم يصدر منها رد فعل فورى لما تأكدت أنه كان يهذى. وسريعًا ألقت حملها على الأرض ثم توجهت إلى المطبخ وعادت يدفعها العجل واللهفة الشديدة التى كادت أن تسمح للماء أن يندلق. ومسحت وجه زوجها بقطعة مبللة وأعادت المسح وكررت. وحين استيقظ سألها إن كان قد صرخ فى نومه فأجابت بالنفى. وتبسم وهم بالنهوض فمنعته وأحنت ظهرها وقبلته. وسقته الكثير من الماء. وذهبت حبيبته فبدلت ملابسها ثم عادت إليه.

لاحظ أنها كانت تلبس قطعة واحدة فقط هى فستان نوم أحمر قصير وشفاف كله باستثناء منطقتين. وكذلك لاحظ أن شعرها

الأسود الناعم أصبح قصيرًا جدا إلى درجة أنه صار لا يكاد يلامس الكتف. وأخبرته أن من أنجزت المهمة هى مصففة شعر وفدت حديثا إلى القرية. وكان محتارا جدا فى أمر الدائرة الجرداء فوق الأذن اليمنى وكذلك الأخرى فوق الأذن اليسرى. وأصبح ينظر إليها بدهشة ورغبة فى الضحك الكثير لكنها لم تعطه الوقت الكافى لكى يحسم التردد فقفزت إلى السرير وباعدت بين فخذيه ثم ضغطت عليهما بساقيها الممتلئتين. ووضعت يدها اليمنى على يده اليسرى فأصبح لا يقدر على الحركة. وأخرجت فأسا صغيرة ولعقت طرفها الحاد بلسانها عدة مرات وحين رفعتها إلى أعلى أغمض عينيه فى الحال وارتجف جسمه. فى البدء كان متضايقًا ويتنفس بسرعة كبيرة لكنه أخيرًا همد. وقامت بسرعة وهرولت وجلبت كل ما من شأنه أن يساعد زوجها على استرداد وعيه. وحين أفاق وجدها ترقد بجواره وهى تشهق بالبكاء الكثير وتنتحب. وجذب طرف الملاءة وجفف لها دموعها. واعتذرت جاموسه وأكثرت من الاعتذار وأخبرته أن الفأس كانت من المطاط.

كان قد نهض جالسًا لكنه عاد فرقد مسندًا خده على يده وأكد لها من جديد أنه قبل اعتذارها. وبعد فترة انفجر بالضحك حين وجدها تدير جهاز الموسيقى وترقص بالفأس بطريقة بهلوانية. وكانت هى كذلك تضحك وتنظر بإعجاب إلى أسنانه المفرقة ولسانه العريض

الضخم. وكانت تضع الفأس أحيانًا بين نهديها الكبيرين وأحيانًا أخرى كانت تعض عليها بنواجذها. وحين اطمأنت إلى رضاه عنها أعطته الفأس وطلبت منه أن يلعقها وعندما رفض اتهمته بالرياء. وزادت على ذلك أنه كان منافقًا حين سماها حمامة. وذكرته بالوقت الذى كان يجادل فيه بأن تسمية المرأة البدينة بالجاموسة أو البقرة شيء عادى جدًا عند السودانيين وذكرته بالوقت الذى كان يدعى فيه أن تلك النعوت هى من باب الغزل الراقى عند الرعاة. وحاول بكل وسيلة أن يوضح لها حسن نيته والتزامه جانب الموضوعية لكنه فشل.

فى المرات القليلة التى كان يزور فيها المدينة كان موسى يدلف إلى متاجر الألعاب والدمى ويضع يده على ظهور البقر ويمررها إلى الأمام وإلى الخلف. وكان يتردد كثيرًا قبل أن يحسم أمره حسمًا نهائيًا بعدم شراء دمية بقرة. وكان يحلم وهو جالس فى الحدائق ويتدبر فى حالة الشقف المميز التى كانت تحل به. وفى أحلامه الكثيرة كان يضع تماثيل زوجته البقرة على اللوحات لكى تزينها. أما جاموسة فكانت فى خلوتها تكتب اسم زوجها على صفحات الجبنة والزبدة لكنها لا تفعل ذلك على الثلج لأنها كانت تخشى أن يتبخر ويصبح ذرات جبنها بين وهروبة تلعب بها الأضواء الخضراء والحمراء والبرتقالية.

وطال صمته المريب فاقتربت منه كثيرًا وربتت على كتفه وقالت:

ـ هل أعجبك التغيير؟

نعم ولكن!

وبسرعة قاطعته قائلة:

منافق.

لبس جلبابه بسرعة وخرج من دون أن تتحرك شفتاه بحرف واحد. ولم يك غاضبًا كل الغضب لكنه كان يريد أن يعطيها فرصة كافية لكي تراجع نفسها وتتدبر الأمور. وعاد من منفاه الاختيارى، كما وصفه لى بعد ذلك، فجلس على مقعد خشبى صغير منسوجة عليه حبال من سعف الدوم. وفى لحظة ما كان يحدق باستمرار في خشب السقف. إن التغيير الحقيقى هو تغيير الجوهر لا المظهر وإذا تغير الأول فالثانى سيتبعه. وموسى كان يوافقنى على هذا الرأى.

وبعد دقائق أشعل صاحبى سجارة وجعل يدخن بشراهة. ولأنها كانت تعلم علم اليقين بأنه قد ترك التدخين من زمن المراهقة فقد أحست بأن عليها أن تحاول مرة أخرى وبجد كبير أن تقنعه بحسن اختيارها للمظهر الجديد.

ميت

شدت الممرضة الأنيقة الرشيقة على قبضة يدها اليمنى لما شعرت أن فخذها قد أصبح يلامس فخذ شقيق الميت. ونظرًا للازدحام الشديد فإنها كانت طول الوقت تحاول أن تحافظ على المسافة الصغيرة التى تفصل بينهما والتى لا تتعدى بضع سنتمترات. وحين وجدته يحدق فى مكان بعيد أحكمت قبضتها على باقة الورد الجميلة ورفعتها حذو صدرها. وللمرة العشرين مسحت حبيبات العرق من وجهها الجميل ومن جيدها المعتدل الجذاب. ولأن المنديل كان مبتلًا إلى حد التشبع، فقد آثرت أن تتركه يجف بفعل الشمس، فظلت قابضة عليه بأناملها الرقيقة ومحتفظة به مبسوطًا ومبعدًا عن فستانها المخملى الأزرق الغامق القصير.

وضع الرجل العجوز يده اليمنى على كتف الفتاة لما أحس أنها تضايقت إلى حد القرف من الرائحة النتنة المنبعثة من المكان، ومن حرارة شمس منتصف النهار الصيفى. ووضعت الممرضة بدورها يدها على كفه من دون أن تلتفت إليه لأنها آثرت أن تظل خاشعة

وهى تستمع إلى تلاوة رجال الدين الواقفين قريبًا من التابوت. ومسحت دموعها لما انتهى الرجال من تلاوتهم فتحركت بخطوات بطيئة وثابتة. ورمت بوردات أربع على التابوت الموضوع فى القبر ثم استدارت بجسمها كله حتى يتسنى لها التعرف التام على ملامح الرجل الغريب الذى كان يقف عند مؤخرة الساحة.

بحكم مرافقتها للراحل طوال سنوات مرضه الأخيرة، وهى كانت ممرضته الشخصية، فقد كانت على يقين تام بأن الرجل الغريب ليس من أهل الميت ولا من أصدقائه ولا زملائه. وفى البدء حول الرجل الغريب بصره بعيدًا عنها لما أحس أنها كانت تراقبه، لكنه انتهز فرصة انشغالها بتنظيم باقة الورد، فزج بنفسه بحذر وسط المنتظرين. وانتظر اللحظة المناسبة ثم جعل يراقب الشابة الأنيقة خلسة. وكانت مشاعر الشابة جياشة منذ بدء المراسم ثم أصبحت تنتحب بشكل عنيف ومقلق، الرجل الغريب بدوره لاحظ ذلك. واقترب منها العجوز شقيق الميت وأحاطها بذراعه ثم أمسك بيدها اليسرى. وأدارت وجهها صوبه فى وقت كانت فيه رجلها قريبة جدًا من رجله فنظرت إليه مليًا ثم قالت.

لا تقلق يا عمى.. أنا بخير.

كانت دومًا تناديه بعمى لأن أخيه المتوفى كان قد أمر الأسرة بأن تعتبرها مثل ابنته تمامًا. وفى موقف مغاير كان الشقيق الأصغر

للرجل المتوفى قد أنفق وقتًا ليس بالقصير وهو يزحزح جسمه لكى يحس بنعومة المخمل ونعومة جسم المرأة الجميلة. وحين قبل العجوز رأسها وهمس لها فى أذنها شعرت بالطمأنينة. وقبلت على مضض إطراءه لها وثناءه على إحسانها اختيار العطر، لأنها كانت فى ذلك الوقت مشمئزة من نتانة المكان. وكانت تشعر بأن العفونة أصبحت مقيمة فى المحيط الذى تقف فيه وملتصقة بشعيرات أنفها وأذنيها وفستانها الجميل.

لاحظ العم أن الشابة كانت تستدير مع حركة الرجل الغريب باستمرار كأنها بوصلة. وحين غادر الرجل المكان التفتت ناحية العم وشكرته مرة أخرى. وشاركها الرجال والنساء حيرتها حول الرجل الغريب الذى جاء متأخرًا فانغمس وسط الجمع الغفير ثم انسلَّ من المؤخرة وتقدم حتى اتخذ له مكانًا فى المقدمة، ولما جاء دوره اكتفى بالوقوف أمام القبر، لم يضع إكليل زهوره ولا حتى زهرة واحدة. وظل الرجل يراقب الجميع وهو فى طريق المغادرة، حتى الفتاة الأنيقة وعمها لم يسلما من نظراته الفاحصة الحذرة. وحين ابتعد أصلح الغريب هندامه وعدل وضع ربطة العنق ثم قرب يده من أنفه. وبسرعة جنونية نفض الغبار عن ملابسه، وكان يشعر أنه قد تمكن من نفض العفن. وافتخر بنفسه لما هيأ له خياله أنه قد تخلص من النتانة إلى الأبد.

عند المدخل أديرت محركات السيارات وهمت الفتاة بالصعود إلى سيارتها لكنها تراجعت عن الفكرة وآبت وخطت فى اتجاه المقبرة ثم توقفت عند منتصف الطريق. ولم يأتِ الغريب فانتظرته ولما يئست من مجيئه ذهبت إلى الناحيه الأخرى. وبعد أن أمضت عشر دقائق فى المشى لمحت الرجل وهو على البعد يمشى أمامها، وكانت خطواته سريعة وثابتة. وقررت أن تلحق به فكانت تمشى مسرعة حينًا وفى حين آخر كانت تعدو ببطء وتحوط. ولما اقتربت منه شعر بها فأسرع فى مشيه. وأصبحت تمشى بحذر شديد وفى لحظة ما توقفت فاستدارت ذات اليمين وذات الشمال فأدركت أنها قد توغلت فى شارع ضيق جدًا ومحاط بقناتى ماء واسعتين ليس بهما كبارى. إضافة إلى ذلك فإن المكان كثيف الأشجار ومرعب جدًا. وفكرت فى خطة بديلة لكن حب الاستطلاع منعها من التراجع، إذ كانت دائمًا تستحضر صورة الرجل الغريب وهو يراقب الناس ويبكى بحرقة شديدة أمام مقبرة أبيها ويشهق كثيرًا، وبعد كل هذه التصرفات انسل مغادرًا بأسلوب مريب.

توقف الرجل الغريب للمرة الرابعة فسايرته الفتاة. ووضع إكليل الزهور على صخرة مستطيلة، فبكى وانتحب واقترب من قناة الماء فغرف منها وغسل رأسه كله ثم كرر ثم مسح وجهه وعنقه بمنديل أنيق. وأخرج قارورة عطر صغيرة فعطر أذنيه وكفيه. وشعر بأن أمرًا

ما يجرى خلفه لكنه لم يلتفت إلى حيث كانت تقف الفتاة الجميلة بل أطرق حينًا من الوقت ثم حمل إكليل الزهور ثم مضى فى طريقه.

كان الرجل يمشى بخطوات بطيئة وكان فى أحيان كثيرة يديم النظر إلى الماء النقى الذى كان يجرى بلا توقف ويهب الجمال والحياة إلى القنوات اللطيفة وإلى الأشجار والأزهار البرية والطيور والناس الذين يمرون به بسلام. وكان يحسد الماء ويحسد كذلك الطبيعة على طهرها الفياض وعلى جمالها الفطير. إن الطبيعة الطاهرة قلبها نقى كقلوب الأطفال النيرين أما الإنسان الملوث فهو ذو قلب به درن كالخرقة التى يستخدمها عمال النظافة لإزالة الأوساخ المزمنة.

وقبل أن تقفل راجعة توقفت الفتاة، ففكرت مليًا وتدبرت حالها. وأعادت تشغيل الشريط فشعرت أنها حتمًا ستكون فى خطر حقيقى إذا ما انكشف أمرها، فجعلت تسرع فى مشيها وأحيانًا كانت تهرول. وكانت الأرجل مضطربة والساقان يتحركان كأنهما يتشاجران على ميراث وأعلى الجسم يرتجف كله. وبرغم الخوف الشديد فإنها لم تتوقف عن الحركة حتى بلغت المبنى الفتان الذى يحتوى بداخله مقبرة لثرى أو نبيل عظيم، حسب ما حدثت به صديقاتها بعد ذلك.

واستدارت عدة مرات إلى أن اطمأنت إلى استحالة انكشاف أمرها. وفتحت الباب بحذر شديد ثم دلفت إلى الداخل. وأضاءت المصابيح فأغلقت الباب وسحبت المزلاج بسرعة ثم تنفست بعمق

شديد. وجلست على جانب القبر، وبالضبط على قطعة من الرخام الأسود الأملس الجميل، ثم خلعت الخف الجلدى الأسود الأنيق ومددت رجليها. واستدارت لكى تتأكد من أنها عندما تكون جالسة فإن بناية القبر تحجب جسمها تمامًا عن مدخل المبنى، ومع ذلك لم تكف عن الذهاب إلى المدخل لكى تسترق السمع إلى المارة أو المهاجمين المحتملين. وذهبت مرة ومرات أخر واستكشفت المكان كله ثم عادت وجلست على نفس قطعة الرخام السوداء.

كانت المقبرة جميلة جدًا وراقية كأنها تحفة فنية مميزة مما دفع الفتاة إلى أن تهجر الخوف لبعض الوقت وتسجل بعض النقاط المهمة على مفكرة الهاتف الجوال وتلتقط بضع صور. ولما تعبت مددت رجليها ثم أسندت رأسها على كفها وأغمضت عينيها الواسعتين الجميلتين. وكانت تنعطف ذات اليمين وذات الشمال فى محاولة لتفادى النوم. وفى الوقت الذى شعرت فيه بأن النعاس يغازلها هبت واقفة وقامت بجولة استطلاعية أخرى داخل المقبرة. وانشغلت بالمعلومات الكثيرة التى جمعتها عن الميت وتلك المكتوبة على شواهد القبر لكنها استدركت الأمر المهم حين أحست بأن الوقت يمر ومصائب الليل ستأتى لا محالة. وقامت على الفور بترتيب الأحداث وصياغة القصة من جديد لكى تتدبر الحلول المناسبة. وفكرت كثيرًا ثم شرعت تطوف المكان كله وتتحدث مثل المحامى الغرير حين ينهمك فى

تجهيز مرافعته الأولى. كانت تتحدث بصوت مسموع وتقول:

نعم الرجل مشغول بنفسه، بلا شك، لكن قد يأتى إلى هنا، هذا احتمال قوى. وحتى لو جاء فإنه لن يتمكن من فتح الباب، هذا شىء مؤكد. ولن ينجح فى مساعيه وسيحمل حبال خيبته ويرحل حين يعجز عن اكتشاف مكانك، فتماسكى. إضافة إلى ذلك فهو مسكون بالرعب المقيم فى هذا المكان المهجور. وإذا كان ثمة احتمال بأن يشك فى خططى ونظراتى له وتحركاتى، فإنه احتمال ضعيف. أف، كل الناس شكاكين سوى أهلى الحقيقيين. أهل أبى المتوفى كنت معهم عند حدوث الوفاة، ولو لم أكن هناك لكان بعض منهم قد تجرأ وشك فى. ولا غرو فى أنهم رفضوا بالإجماع تدوين أى بلاغ عن جريمة قتل، لأن الرجل مات ميتة طبيعية وأكد ذلك تقرير الطبيب. وجدوه وحيدًا ممد الرجلين وجسمه بارد. كل شىء عادى، ولا شىء مغاير، إذن لماذا تصر الشرطة على أخذ أقوالى مرة ومرة أخرى. اللعنة، إذن الشرطة تعتقد أن هنالك جريمة ما!!! هذا هراء.

رجعت إلى القبر وجلست من جديد على صخرة من المرمر. وظلت لعدة دقائق تفكر فى كلمات مرافعتها وتثنى على نفسها. ومددت رجليها ثم رقدت وأسندت رأسها على يديها حين أرهقها التفكير الكثير. ولكى تمنع نفسها من ممارسة المزيد من التفكير المرهق أغمضت عينيها وضغطت عليهما بأصابعها حتى شعرت بالألم

المتواصل. وأصبحت تحرك رأسها بسرعة صوب اليمين وصوب اليسار وإلى أعلى وإلى أسفل وهى مغمضة العينين. وبعد دقائق نهضت واستقامت فى وقفتها ثم رفعت كفها الأيمن وواصلت المرافعة:

طبعا لا، لم أقتله. إننى كذلك كنت أعتبره أبى ومازلت، فكيف أقتل أبى الذى أحبه كل الحب. أقسم لكم أننى قد قلت الحقيقة كلها. إن الجميع كان يدرى أن أيامه أصبحت معدودة وأن جسمه النحيل سوف لن يصمد طويلا أمام المرض العضال. لقد تحدثنا كثيرا، أنا وهو، والحب كان يجمعنا وهو العهد الذى بيننا. وكنت أقوم بواجبى على وجه كامل ولا أتدخل فى شىء لا يعنينى ولا أقرأ تقارير الأطباء ولا أدرى إن كان له مال كثير أم قليل. نعم هى الحقيقة ولا شىء آخر. لا شىء... لا شىء.

حين انتهت انحنت وملأت قبضة يدها من تراب ناعم وضغطت عليه بقوة عنيفة. وبعد بضع دقائق عدلت عن أفكار العنف التى كانت توشك على النضوج ثم نثرت التراب حول المكان. ولاحظت أن الفرس المنحوت على جانب القبر قد تنزلت عليه ذرات كثيرة من الغبار فهرعت ومسحت جسده. وأحست بنعومة جسد الفرس المرحبة لكنها فى نفس الوقت كانت تلاحظ أن يدها أصبحت تغوص إلى داخل جسم الحيوان فأغمضت عينيها لكى تتأكد من

صدق مشاعرها. وحين فتحت عيونها وجدت أن التمثال كان كلبا وليس فرسا. وأصبح الكلب يحرك رأسه وينبح بوحشية ويفتح فمه واسعا. وبعد مرور لحظات اختفى الكلب تاركًا خلفه هوة عميقة مظلمة ومرعبة. وحين عاد الكلب مرة أخرى لاحظت أنه يحمل بين فكيه جمجمة الميت صاحب القبر. وثبت الكلب الجمجمة على لسانه وحركها بقوة حتى كادت أن تسقط. وأصبحت الجمجمة تتحدث بلغة غير مفهومة.

الصلاة كانت ملاذها الآمن، حسب ما جاء فى حديث إحدى صديقاتها. ولما أغمضت عينيها اطمانت وجعلت تصلى وتقرأ التعاويذ التى لقنتها لها أمها منذ الصغر. وفتحت عينيها واسعتين فظهر أمامها تمثال الفرس من جديد. وأسندت ظهرها إلى الحائط وأمعنت النظر فيه ثم قالت:

نعم هو المنطق. إنه فرس، فرس وفارس، هو المنطق

إنها لم تك تدرى بأن الواقف خلفها هو فارس آخر، هكذا قدم نفسه، وهكذا سمى نفسه من قبل وكان يصر على زملاء العمل أن ينادوه بالفارس. ووضع الرجل يده على كتفها. واستدارت مذعورة وهى تنتفض وتحاول أن تخلص يدها من قبضته. وجعل يحضها ويستخدم كل الطرق لإقناعها بأن تمعن النظر فى وجهه وحين فعلت تعرفت عليه فغشيتها إغماءة. وقام الرجل بنثر ذرات العطر على

منديله ثم جعلها تستنشقه وكرر العملية حتى أفاقت. وحاولت أن تسرد له حكايتها فوضع يده على فمها ثم وضع يده الأخرى على كتفها وانتظر. وفى اللحظة التى شعر فيها بأنها اطمأنت أخبرها بأنها كانت تهذى حين دخل عليها ولم تنتبه، وأقسم لها ومع ذلك لم تصدقه. وقالت له إنه خداع الظل والضوء. وطلب منها بإلحاح أن تمهله حتى ينتهى من سرد حكايته. وأصبح ينظر إلى عينيها الحالمتين ويتحدث بسرعة وبلا انقطاع.

كان زميلى فى الشركة وحين بدأت العمل كان يسبقنى بعدة سنوات. واستقبلنى استقبالا ممتازًا عند بدايات مسيرتى العملية فتعلمت منه الكثير. ولم يبخل على بشىء على الإطلاق. لست وحدى لكن الكل شهد بأنه على دراية بالكثير من أقسام الشركة ولهذا السبب كنت أستشيره فى الكثير من الأشياء التى أفادتنى فى عملى فى قسم إدارة الموارد البشرية. نعم كنت طالبًا مميزًا فى الجامعة ثم درست بعد ذلك أثناء العمل لكن كانت الخبرة العملية التى اكتسبتها من الزملاء مهمة جدًا. وكنت طموحًا فكونت شبكة واسعة من علاقات العمل وأصدقاء المهنة. وبسرعة أصبحت رئيسًا لأحد الإدارات المهمة فى القسم أما هو فكان طموحه محدودًا لكنه كان طيبًا إلى أبعد الحدود وعلى خلق عظيم. وقد علمتنى الخبرة أن الطيبين والجادين أمثاله لن يستطيعوا أن يفيدوا الشركة كثيرًا.

كان صديقى لذلك لم أسع إلى إبعاده من الشركة كما فعلت مع غيره لكننى فعلت كل ما فى استطاعتى من أجل أن أحول دون ترقيته. وكنت لا أستبعد أى وسيلة فى سبيل الوصول إلى ذلك الهدف ولو كان الثمن تغيير الحقائق أو تزوير البيانات أو شراء الذمم. وبالطبع لم أقصد تشويه سمعته لكننى كنت أرى أن مصلحة الشركة تعلو على كل شىء. وكانت خشيتى الحقيقية هى أن يتمكن هذا الشخص من الترقى إلى منصب قيادى، وفى تلك الحالة كانت ستحدث كارثة كبيرة قد تودى بالشركة كلها. ولم أقصد إذيته بل كنت أود أن أحميه لأن به غباء عضال، وهو قد لا يكون على علم بذلك. أرجو منك أن تصدقينى، فأمثاله يضرون أنفسهم من غير أن يدروا بذلك لأنهم يتركون ثغرات يستطيع أن يلج من خلالها الخبثاء واللصوص والمخربون.

ما لم يحدث به الرجل الغريب الفتاة الرشيقة هو أن صديقه الراحل كان زاهدًا فى المناصب برغم ذكائه. والأمر الآخر هو أن المنافسين للرجل أصبحوا يرفدون صديقه بالمعلومات الكثيرة عن تامر الفارس المزيف عليه. وبالرغم من الركام الكبير من المعلومات التى توافرت إلا أن الصديق الراحل ظل كتومًا لا ينم ولا يبهت. والرجل كان يحاول بكل قوته أن يغتال شخصية صديقه لكن محاولاته لم تثمر. وفى أيامه الأخيرة لم يبذل الراحل أى مجهود لترميم الصداقة

التى أصبحت آيلة للسقوط. ولأن الرجل الخائن كان يمتلك موهبة نادرة مكنته من أن يحصل على المعلومات الحساسة والشخصية، فقد علم فى نهاية المطاف أنه قد اكتوى بالنار التى أوقدها واعتبر بالنسبة لأصدقائه ومعارفه مثل الميت الذى يسعى بينهم بجسده.

تحدث الرجل الغريب كثيرًا وبذل مجهودًا كبيرًا من أجل الإقناع لكن علامات الاستفهام الكثيرة ظلت مرسومة على وجه الفتاة. وحدثها بأنه اعتاد كثيرًا أن يحضر مراسم دفن الغرباء أملًا فى أن يجد ما يشد من أزره وما يلهمه الكلام المناسب الذى يستطيع أن يواجه به روح صديقه الراقد فى مثواه الأخير.

قبل أن يدخل على الشابة الأنيقة كان الرجل يجثو عند قبر صديقه فلم يستطع الاعتذار له ولا التبرير لما اقترفه من خيانة. واعترف لها بعد ذلك بقلة حيلته على الرغم من خبرته الواسعة، فهو قد جرب أهل الدهاء والمنافقين والطماعين والخبثاء والأذكياء والأنقياء، ومع ذلك لم يقدر على أن يستحضر من تجاربه معهم أى شىء يمكن أن يفيده. وبرغم شكوكها الكثيرة حول روايته نصحته بألا يتوقف عن المحاولات عسى أن تستجيب روح الميت يوما ما وتقبل الاعتذار.

ذهبت الفتاة معه إلى القبر ووقفت على مسافة قريبة منه. هو كان يتحدث باستمرار أما هى فكانت مشغولة بالنظر إلى أكاليل الزهور الجميلة. وصمت فطلب منها أن تصلى معه فصلت وبكت بحرقة.

وأمسك بكفها الأيمن ومسح بيمناه على ظهر يدها ثم وضع أصابعه على خدها الناعم ومسح برفق وضغط حتى إدارات وجهها. وعدل وقفته وأصبح مواجهًا لها ثم وضع يديه على كتفيها. وكان يحرك أصابعه برفق على الكتفين الناعمين ويديم النظر إلى عينيها المعسولتين وحين اطمأن إلى رضاها طلب منها أن يرافقها إلى المقهى الذى كانت الأسرة مجتمعة فيه.

أوقفت السيارة وقادته إلى المقهى فتحمس لكنه توقف فجأة عند المدخل وطلب منها أن ترافقه إلى مقهى آخر قريب. ووافقت على الفور فأمسك بيدها وسارا لمدة خمس دقائق. وكانا صامتين تماما. وفى اللحظة التى أراد فيها أن يتكلم لاحظ أن عينيها تخبئان حديثًا ما فظل صامتا ينتظر. وعلى العكس منه كانت هى فى تلك اللحظة مستعدة تماما للحديث مع شخص تثق به وتحكى له عن شكوكها فى أن يكون الرجل الغريب إما عميلًا لجهاز مخابرات أو هو أحد المجرمين الأذكياء.

صبـاحى

نعم.. هذه هى المحاولة السابعة لكتابة رسالة إليها. ومع ذلك فإننى مصمم كل التصميم على أن أمضى قدما على الرغم من عدم وجود أي دليل يشير إلى أننى سأنجح. ولأن الكتابة استمرت لساعات طويلة فقد أصاب أعصابى الإعياء والتوتر المفضى إلى الشلل التام. وجربت، نعم جربت كل التعابير وكل حيل الإنشاء لكننى فشلت. وهى حيرة فريدة من نوعها. والمحير أكثر هو تصميمى على أن تكون هذه النسخة هى النسخة الأخيرة. والرقم 7 موجود فى دواخلى ومرتبط فى ذهنى بسر لا أعرف الآن بالضبط كيف أستخرج تفاصيله. لكن الأكيد هو أن هذا الرقم، رقم 7، قد اقترن عندى بالحد الأدنى الذى يضعه الناس عادة كمحك يدل على إنجاز العمل.

الكتابة.. الكتابة.. الكتابة لا فائدة ترجى منها إذا لم تأتِ بجديد. والعلاقة االزوجية كذلك. أى علاقة. حب أو صداقة أو تجارة أو ما شابه. والعلاقة لو استسلمت للفتور تكون قد حكمت على نفسها

بالنهاية. كذلك العداء لو أصاب عضلاته الفتر وجب عليه أن يتوقف فورًا لأن السباق فى هذه الحالة سيصبح بلا جدوى. العناد لا يفيد. نادية كانت عنيدة جدا. جمدت آلة التفكير فى رأسها ورفضت الاعتذار. وهى المسئولة عن كل شيء. هى التى وضعت علاقتنا فى هذا النفق المظلم. والإصرار على أن تكون المحاولة السابعة هى المحاولة الأخيرة لا يسمى عنادا طالما هو حق ومستند على مبررات منطقية. ولا يحق لأى شخص أن يسأل عن ذلك المنطق. أنا قررت وشرعت فى التنفيذ وكفى. أما منطق العقل المتحجر عند نادية فهو الذى وضع علاقتنا فى مأزق كبير. أف أف. التشدد. هو التشدد بعينه. لكن من فينا كان المتشدد؟

هل أنت تحبها؟

نعم، بلا شك. وما الغضاضة فى هذا؟

حسنا. وما هى المشكلة إذن؟

هنالك أشياء يصعب تبسيطها أو شرحها. وأنا فى نهاية المطاف لست مطالبا أن أوضح مشاعرى. أول مرة أحدثها صراحة عن حبى، كانت بالقرب من مزرعة على شاطئ النيل فى الخرطوم. كان الوقت عصرا ووهج الشمس قد ألم به الفتور العذب وتمكن منه. جاءت هى وصديقاتها من الريف الغربى لأمدرمان وانتظرن هناك. لمحتهن فاستدرت وهرعت صوبهن. ولما وصلت سلمن على وذهبن

فبقيت هى. كانت فى تلك الفترة تخدم فى البيوت بما فيها بيتنا. من هنا أتتها الجرأة، أعتقد أن البنات فى ريف أمدرمان لا يفعلن هذا عادة. إضافة إلى هذا فإن أسرتها كانت قد نزحت من بادية كردفان المحافظة بعد أن ضرب الجفاف والتصحر تلك المناطق. ربما كان هنالك اتفاق ما أو تواطؤ بين البنات. أمسكت بيدها واقتربت كثيرا جدا منها. كانت تنظر إلى وتتبسم. وكلما تفاعلت معها كانت عيناها السوداوان المجنونتان اللذيذتان تصبحان أكثر اتساعا وأوفر شهوة. وكان وجهها المليح يبدو مشرقا كله ومفعما بالبشر المنثال. شمس الأصيل كانت جميلة جدا لكنها توارت خجلا لما رأت نادية تخلب لبى. لم تحاول أن تحرر يدها بل ظلت محتفظة بالبسمة نفسها وكانت باهرة الحضور. قلت لها أحبك. وفى تلك اللحظة بالضبط وبسرعة مجنونة حررت يدها من قبضتى ثم هرولت مسرعة. وفى منتصف الدرب استدارت فلوحت لى بيدها ثم انضمت إلى الزمرة. وأنا الآن أجد نفسى أستعيد تفاصيل تلك اللحظات ولا أدرى ما السبب. هل هو الحب الأعمى أو هو الشيطان الخبيث الذى يسعى إلى تبديد الجهد وصرف الأنظار عن التفكير المنطقى الرامى إلى حل المشكلة الأساسية. لا أدرى لكن ما أعلمه علم اليقين هو أنها مشكلة واحدة ونادية هى المتسبب فيها. تلك هى الحياة، مشاكلها لا تحل بالمعادلات الرياضية أو بالمنطق المجرد. ولكن المبادئ والقيم لا يجوز التخلى

عنها. هى حيرة أخرى. نعم هى حيرة أخرى. أنا درست القانون والقانون مبنى على المبادئ، ولسوف أظل مخلصا لهذه المبادئ والقيم. أنا إنسان صاحب رأى ولا أشبه العوام الذين لا يجدون الشجاعة على أن يسبحوا عكس التيار. مهنتى عظيمة جدا، أنا أحبها واستطعت أن أطور نفسى ولا أسمح بأن تذهب مجهوداتى هدرًا.

حتى لو أدى التعصب إلى خراب بيتك؟

هذا فأل سيئ يا أخى

وما هو الفأل الحسن؟

دنيا دنيا!! دنيا عجيبة جدا. نادية ستكون الآن حتما مع صديقاتها وسيحرضنها على التمسك بموقفها المتصلب. هن خرابات بيوت لا مشورة نافعة ترجى منهن ولا نصيحة تفيد. إضافة إلى ذلك فهن منافقات يضعن الآن أقنعة الناصحات والواعظات على رءوسهن الفارغة. هن نفس الصديقات اللائى كن يضايقنني بعبارات الغزل المبتذل حين كن يصادفنني في مكان مهجور أو معزول مثل تلك المزرعة. أو خلال الدروس الخاصة حين كانت تتخلف عنها نادية. ومع ذلك فإننى لن أبوح لها بهذه المعلومة.

لا مدعى ولا متغطرس أنا، لكن لن أهين نفسى من أجل أى بشر. وتلك الزمرة كذوبة كلها. فبعد زواجنا أصبحن يطفن بالبيوت ويحدثن الناس بأننى تزوجت من خادمتى وأنها مجرد فتاة

مخادعة. كذلك كن يقلن بأننى حلبى أهبل مترهل الجسم ضخم الجثة وذو وجه مستطيل ولسان يشبه قالب الطوب الأحمر. والأفضل له أن يخفى لسانه حين يضحك. هذه عنصرية قذرة. أنا سودانى أبا عن جد. جدى الأكبر تاجر يونانى جاء إلى هنا منذ القدم. وكلمة حلبى تعنى غجرى وتطلق أحيانا فى السودان على الشخص الأبيض أو الأحمر للحط من قدره. جدتى لأبى سودانية مسلمة من عرب الشمال وأمى نوبية. وحين كنت طفلا كنت أسمع السخرية من الزملاء فى المدرسة حول لكنة أمى حين تتحدث العربية. كنت أتشاجر معهم وأدافع عن العجم. ولماذا أسرتنا بالتحديد؟ فالسودان كله خليط بين عرب وعجم. زوجتى نادية بقارية من غرب السودان وحين تتحدث مع أمها فإننى لا أفهم لهجتها لكننى لا أستهجن ذلك السلوك. كانت تتحدث كثيرًا عن جدها. وهو أحد أمراء المهدية. وتفتخر به غاية الفخر. وعن طريقها أحببت المهدى على الرغم من أننى لا أفهم الكثير عن دعوته.

أمى وصلت. أتمنى ألا تشرع مرة أخرى فى الحديث عن نادية. هى تحبها كثيرا وكانت هى السبب فى إثناء أبى عن موقفه المتصلب والمعارض بشدة لفكرة زواجى. وكانت حجته فى ذلك هى أن الناس سيظنون أن السر يكمن فى عيب كبير أو فعل شنيع اقترفناه. لو فتحت الوالدة فمها فلسوف أطلب منها عدم الخوض فى الموضوع

لأنها ستكون منحازة إلى جانب نادية بلا شك. الحمد لله، وضعت مشروب الكركديه الساخن على المنضدة وانسحبت بهدوء. بالهناء والشفاء. كانت تلك هى العبارة الوحيدة التى تركتها ترن رنا لطيفا فى طبلة أذنى. لو كانت اللحظة غير اللحظة لكنت قد طلبت منها أن تمكث طويلا. أحبها كثيرا. امرأة لطيفة جدا وعظيمة وقوية. أحس الآن بألم فظيع يكاد يمزق دواخلى. هل أمى غاضبة؟ ربما. لكن المؤكد أنها ستسامحنى لأنها تدرك دوافعى الحسنة. هى تحب الرجل الصادق صاحب الرأى الواضح. كانت تقول لى إن أهم ما يميز والدك هو أنه يتمسك برأيه ولو خالفه كل الناس. كان يتفق مع جدى أحيانا وفى أوقات أخرى كان يختلف معه خاصة حين أصر الجد على عدم تغيير نوع التجارة. نادية بالمقابل تشبه أمى فى أشياء كثيرة لكنها عنيدة مثل أبى.. هل هى الآن حزينة مثل أمى؟

أسبوع مضى على فراقنا. قبلها كنا تشاجرنا طويلا فى المساء. نمت بعدها متأخرًا لكننى صحوت باكرًا فذهبت إلى العمل. رجعت والغيظ يكاد يفجر صدرى. دفعت الباب بعنف ووضعت قدمى اليسرى. يقولون إنها مفلطحة. وضعتها على فناء الدار وضغطت جيدًا على الأرض كمن يريد أن يحفر حفرة ليزرع فيها شيئًا ما. نادية كانت لا تحفر لكن كانت تدفن الحفر حين كانت طفلة تساعد والديها فى المزرعة. شعرت بأن أطرافى مثل أسطوانات حديد.

تحركت بخطوات بطيئة ثابته ودواخلى مفعمة بالتصميم الأكيد على حسم الأمر حسمًا نهائيًا مهما كان حجم التكلفة. ولأن القرارات ستكون لها انعكاسات مؤثرة على مستقبلى المهنى والاجتماعى فإننى كنت مشحونًا بالعواطف الجياشة رغم التماسك الظاهر. دلفت إلى داخل الصالون. كانت نادية تقف عند الدهليز وتنظر إلى بلطف. شعرت أنها شاحبة الوجه وحساسة أكثر من ذى قبل. لم ألتفت إليها. خلعت البدلة الأنيقة وقذفت بها لتستقر على طرف الأريكة ثم اتجهت إلى غرفة النوم. وفى منتصف الطريق عدلت الخطة فاستدرت ببطء شديد وذهبت إلى المطبخ. أخرجت نصف محتويات الثلاجة وكومتها على المناضد. أشعلت البوتجاز وجعلت أحدق فى النار المتوهجة ثم شربت الماء الكثير. كان أملى أن تنطفئ نار الداخل بسرعة. ترددت نادية كثيرًا لكنها دخلت على وألقت التحية وهى حذرة. رددت عليها السلام. وبسرعة شيطانية حولت بصرى بعيدًا عنها. وحين لمحتنى أهم بتجهيز الطعام أسرعت ومدت يد العون. فى تلك الأثناء بدأ الضجر يسيطر على فأطفأت النار وخرجت. رجعت سريعا ووقفت عند مدخل المطبخ. كنت مصمما على حسم المسألة فى نفس الليلة. لكن ما كان يقلقنى هو أن نادية تغيرت فأصبحت الحاجة إلى التريث مطلوبة. انسحبت وأصبحت أراقبها من بعيد.

تركت ما بيدها وابتعدت حتى اقتربت من النافذة فأسندت

كوعها عليها ثم ألقت نظرة سطحية على شجيرات وأزهار حديقتنا الصغيرة. وحين رأت أن أشعة شمس الغروب قد دثرت أوراق الأشجار اليابسة بثوب من الذهب البديع، أصيبت المتهورة بالغيرة. لم تطق الوقوف فعادت وفتحت الثلاجة وأخرجت بعض الأشياء ثم أعادتها مرة أخرى إلى مكانها. كررت المحاولة مرة ومرة أخرى لكن نفسها لم تطاوعها على الثبات على أمر واحد. كانت على قناعة تامة بأن من واجبها أن تجهز لى الطعام لأن خبرتى قليلة فى هذا المجال. لكنها أمسكت عن الحديث. كانت تربأ بنفسها أن تدنس كرامتها وتقدم على فعل تعلم فى دواخلها بأننى لا محالة سأرفضه.

الناس يحشرون أنوفهم فى كل شىء. شخصان تجمعهما قصة حب عظيمة جدًا. تزوجا وعاشا سعيدين تحت سقف واحد. فما دخل الآخرين فى الذى كان يجرى تحت هذا السقف؟ وما الذى يجنيه هؤلاء البشر لو تمكنوا من الحصول على معلومات تخصنا؟ هى أشياء خاصة وكفى

وكيف يمضى الحب؟ أتساءل وأنا أعلم الإجابة. فى ذلك اليوم صمتت وهى تعلم أنه خيار صعب لكنه كان الخيار الأفضل. هى ليست وحدها بل إن الكثير من النساء يفضلن الصمت فى مثل تلك الأحوال أملا فى إنقاذ الحب. وفى الصمت حكمة. وهل كانت نادية تفكر مثل ما أفكر؟ لا أدرى ولكننى أعلم أنها لم تك قد أحيطت علما

بكل الأشياء التى تخص الحياة الزوجية. هى لم تدرك كنه الأشياء تمامًا. وكل ما كانت ترددده هو أنها مقتنعة تمام القناعة بأنها لم تخطئ. وهذا ما دفعها فى ذلك اليوم إلى التمسك بالصمت حتى لا تصب الزيت على النار. وتحركت ببطء شديد وأطفأت نار الموقد فى المطبخ لا النار التى كانت تسكن بداخلها. تأوهت وشهقت مرتين. ثم تلت ذلك بآهتين. جلست على الكرسى ووضعت يدها اليسرى على المنضدة الكبيرة وباليد الأخرى كانت تضغط على عينيها المغمضتين. أعتقد أنها وقفت أمام المرآة وأدركت أن البكاء الحنظل والتعب الشديد والأرق المقيم توافقت جميعها على أن تمتص ألق عينيها الحلوتين الجذابتين الواسعتين. هى حلوة جدًا ورائعة. كنت أقول هذه العبارة بعد أن أضغط على خصرها بأصابعى الغليظة. كانت حينها تقفز وتضحك ثم تهرول مبتعدة. كانت تسمينى سبعى ثم أبدلتها بصبحى ... ربما أرادت أن تخالف المصريات. ولما خرجت من المطبخ متوجهة إلى غرفة النوم أحسست بأننى موجود هناك فدلفت نحو الصالون. ولما رجعت لكى أتحدث معها عادت من جديد إلى المطبخ. كان قد مضى يوم بأكمله وأنا صائم عن الحديث. لأول مرة يحدث لى هذا الشىء.

تذكرت أننى لم أبدل ملابسى فشرعت فى ذلك. وشعرت بخطواطها وهى تؤوب راجعة إلى الغرفة فازداد غضبى. أدركت

سخف الأفكار التى كانت تدور فى رأسى لكننى لم أستطع اعتقال البسمة التى انطلقت بعفوية. كنت أشعر بأنها ستعتذر. لا أدرى إن كان بصرها قد امتد إلى ما فوق ساقى بعد ذلك. وحين رن فى أذنى صدى آخر كلمات لها قالتها فى مساء اليوم السابق شمل الأسى قلبى كله. أسرعت فى ارتداء الملابس ثم ارتمت على السرير. ثبت رأسى على يدى المغروزتين على ركبتى واستجديت البكاء لكن الدموع أبت أن تخرج. تركت الباب يتأرجح وخطوت مسرعًا وأنا أحرك رجلى بسرعة وأقذف بيدى إلى الأمام وإلى الخلف. ولجت إلى الصالون وارتميت على الكنبة وجعلت أحدق فى الصور المعلقة على الجدران والمصابيح والزهور الصناعية والستائر وكل شىء. وأحيانا أحدق فى اللاشىء. ذهبت إلى النافذة وأصبحت أديم النظر إلى الفراغ العريض. الفراغ العريض المخيف. فراغ عريض مرعب. لا شىء البتة. لا أشخاص لا أصوات. رجعت إلى الكنبة. الأرجل تتأرجح. الأرض تتحرك. فرض علينا الصوم وهو كره لنا. صوم عن الكلام المباح وهو جد صوم مؤلم. جمرة لظاها أكثر إيلامًا من لهيب الجحيم.

أزهار الحديقة كذلك صامت عن الكلام، لكنها كانت تغرس أرجلها بثبات فى الطين الأسود الناعم. كان كل منا قد أصابته الغيرة الشديدة لما تأكد له أن الأزهار تحب طينها حبا جما. أحسب أن نادية كانت تحاول أن تستنطق الأزهار والأشجار والسحب البعيدة

والقطة الرابطة تحت السرير. كانت تحاول لعلها تجد من تلك الأشياء ما يعينها على فك كل طلاسم المأزق.

طال غيابها فتوجهت إلى غرفة النوم لكن وجدت الباب مغلقًا من الداخل. كانت لدينا فرصة فى السابق لكسر الجمود لكنها استجابت لسلطان الغضب. ومع مرور الوقت أصبح الأمر أكثر تعقيدا. بذلت جهودًا كبيرة لكنها لم تحقق النتائج المرجوة. كان كل منا متشبسًا برأيه وكانت خيبة أملها كبيرة ومؤلمة. لكن عزاءها كان هو التمسك بخيار الصمت. وهو خيار مضمون لكنه مؤلم. كانت مرتمية على السرير ودافنة رأسها فى الوسادة. استجدت الدموع وتضرعت إليها لكنها رفضت الخروج من مخبئها. كانت تحس بأن ما ستقوله لى لن يؤثر إلا تأثيرًا محدودًا. يقولون اضرب الحديد وهو متوهج. أنا تعبت من التفكير نيابة عنها. الذهن خمد. هذا شعور جميل. على الأقل فى تلك اللحظة.

طموحة جدًا هى.. كانت تعمل بالنهار وتدرس بالمساء. أكملت الثانوية رغم أنها كانت تعمل ثم أكملت الجامعة واشتغلت فى وظيفة إدارية مرموقة. كثر العذال حولنا. هل هو الحسد أو التفريط. كلانا فرط حين كان الحذر هو الواجب. وقبضة يدى تتحرك إلى الأمام والفم يحاول أن يخرج العبارة المتوهجة لكن الوهج انطفأ فجأة والحرف الأول مات. كل الناس خطاؤون، لكن ليس بالضرورة

أن نعتذر عن كل خطأ. هكذا يقول لسان حالها فى تلك اللحظة. فى وقت ما كانت تدافع بشدة عن كل أفعالى وأقوالى وتقول إننى العاشق الأعظم. عندما ذهبت إلى قريتها وجدت أن أهلها كلهم كانوا يعرفون أشياء كثيرة عنى على الرغم من أننى لم أجد الفرصة لكى ألتقى بهم من قبل. فى المساء أكلنا نحن الرجال وتحدثنا كثيرا. كان الرجال فى مكان بعيد عن النساء. أما نادية فلم أك أراها إلا لمامًا. كنت آخر شخص فى المجموعة يخلد إلى النوم.

كانت الموسيقى الصومالية رائعة وذات إيقاع قوى وراقص. وانهمكت النساء الصوماليات الجميلات فى الرقص وكان رقصهن جذابًا ومثيرًا جدًا. وكان القانون هو ألا يرقص الرجل إلا برفقة امرأة. ولما كثر على الإلحاح من النساء أرسلت فى طلب نادية وجىء بها. كانت تلبس فستانا ضيقا من الساتان الأحمر وكانت ترقص مثل الصوماليات. تماما مثل الصوماليات اللائى حين يقتربن منك فهن إذن راضيات عنك وحين يبتعدن يصبحن فى عداد النافرات. واستمرت لعبة الاقتراب والنفور حتى انتبهت نادية وضغت على يدى. وعندما سمعت صوت المؤذن كان على أن أسحب الغطاء وأظل باقيًا فى سريرى حتى الضحى. وهج الشمس أخفى الأثر الذى كنت قد خشيت أن يفضحنى. وعند الإفطار حدثنى القوم أنهم خمنوا ما حدث لى وخاضوا فى التكهنات ثم تركوا لى حرية أن

أحكى لهم تفاصيل ما حدث أو أكتم ذلك.

كان الناس يقولون إن صباحى شخص كتوم لا يظهر مشاعره السلبية. لكن بعد فترة أغضبتنى نادية فافتضح أمرى أمام زملائى. لم يسألونى لكن شعرت بالرغبة التى بدت على وجوههم. نادية كذلك لم تأخذ زمام المبادرة. فى تلك الأمسية المتوترة كانت تخرج من غرفة لتدخل إلى أخرى ولا تدرى ماذا تريد. أخيرًا ذهبت إلى المطبخ وأدارت جهاز الموسيقى ثم رقصت بعنف ثم أدارت موسيقى أخرى هادئة وتمايلت وتمايلت. وبعد أن تعبت وضعت جبهتها على يدها المسنودة على الحائط ثم بكت بشدة. وفجأة توقفت عن البكاء واستدارت فتبسمت وأطرقت. تفكرت فاكتشفت أن وزنها قد زاد. كنت أحب رشاقتها وخفة دمها وضحكتها النقية الساحرة. كنت أقول لها قبل الزواج إن سخرية البنات من نحافتها هى نتاج طبيعى للغيرة وستنتهى وصدق بعد ذلك حدسى. كن ينعتنها بالنحيفة البلهاء. وهى على النقيض من ذلك كانت ذكية استطاعت أن تحصل على تقدير جيد جدًا فى الجامعة. لم أحدثها عن رؤية الصوماليات فى المنام. هل هذه خيانة؟ ربما لكننى استمتعت بالمشهد عند الصبح وخشيت من المخاطرة. وفى الحقيقة فإننى لم أتعرف على صومالية عن قرب إلا مرة واحدة حين اقتربت من تلك الزميلة فى الكلية. كانت جميلة وجذابة وذكية جدًا ورقيقة ومهذبة. أعتقد أن أى صومالى

ذكى بالفطرة.

سئمت من الوحدة وأصبحت أحدق فى التلفاز من دون أن أعير البرنامج أدنى اهتمام. التفت فوجدت نادية تديم النظر إلى. بسرعة أشحت ببصرى بعيدًا عنها. انطفأت بسمتها بسرعة. بعد لحظات أحسست أنها أصبحت مشغولة بالتلفاز. كنت أشعر أننى جرحت كرامتها. جرح الحبيب مر ومؤلم جدًا. مددت رجلى على الكنبة وغفوت. فتحت عينى فوجدتها تلبس فستان الزفاف وتجلس على الأرض بالقرب منى. مددت يدى فأمسكتها. نمت وصحوت مرة أخرى فوجدت أن جثتى الضحمة مكومة فوقها. انسحبت بحذر ثم أسدلت عليها الغطاء وابتعدت. وبعد رجوعى وجدتها قد صعدت إلى الكنبة وواصلت نومها. انحنيت فقربت فمى من أذنها، كنت أريد أن أهمس لها بكلام كثير وأقبلها لكننى اكتفيت بالإشارة. كانت آثار البكاء ما زالت باقية على خديها الجميلين. ذهبت وبدلت ملابسى فتركت لها رسالة قصيرة ثم خرجت مغادرًا إلى بيت أبى

أنت الآن تبكى لكن حين غادرت دارك كنت مصممًا بشدة على تنفيذ ما عزمت عليه المسألة معقدة يا هذا. هى أعمق بكثير مما تتصور. وهى بأي حال لا تشبه مسألة فسخ عقد شراكة تجارية.

أمى دخلت مرة أخرى. أتمنى ألا تلاحظ الدموع. سأجففها بعد أن تغادر الشرفة. الحمد لله فهى الآن مشغولة بالبخور. هى تدور

حولى وتذهب إلى أركان الغرفة لكى توزع الدخان بالتساوى. أنا لا أحب الدخان لكننى لا أجرؤ على مخالفتها فى هذه اللحظة. الآن اقتربت وأمسكت بيدى وشرعت تتلو آيات من القرآن الكريم. هذه الخطوة تدعم شكوكى بأن الدخان لم ينجح فى طرد الشياطين. وكعادتها أكملت الطقوس بتقبيل جبينى. ستغادر إذن.

فى ذلك اليوم اكتشفت الأمر فاتفقت مع نادية على خطة ننفذها على مراحل وطلبت منها أن تكتم الأمر كتمانا تاما. نعم هى صبرت حتى قرب اكتمال تنفيذ الخطة لكنها أخطأت فى اللحظات الأخيرة حين استجابت للضغوط الكثيرة وأخبرت صديقاتها بحقيقة ما حدث. وقامت الصديقات بنقل الخبر إلى أناس آخرين. وانتشرت الروايات المتعددة للقصة. وكان الناس يضيفون التفاصيل والتوضيحات الكثيرة إلى صلب القصة ويفعلون ذلك بحسن نية أو بمكر. ولو كنت حدثت الناس بنفسى لما تركت مجالا للشائعات لكن أخلاقيات المهنة تتطلب منى ألا أفشى أى معلومات اتفقت مع الآخرين على كتمانها. هى لم تخطئ ولا أنا. لكن كان الناس متلهفين، وهذه طبيعتهم، لمعرفة أخبار جديدة عن العروسة. طبعًا هذا لا يخصهم لكن التكتم فاتح للشهية بالطبع. هو يفتح شهية الناس لاستراق السمع واستدراج الطيبين. هذا هو المبدأ العام ومخالفته تعنى قبول ما يشاع عنك ولو كان كذبا أو بهتانا. فكرت كثيرًا

ووجدت أن النبذ الاجتماعى خير لى من التخلى عن المبادئ.

الحياة الزوجية هى حياة مشتركة لا تتحرك وفقًا لمبدأ واحد هو الحب. يجب أن يكون هنالك اتفاق بين الطرفين على كثير من الأمور. الزوجان ملزمان بأن يتحدثا بلسان واحد. ونادية غير مطالبة بأن تبرر للآخرين ما حدث. قالت لى إنها لم تتعود على أن تكذب. هذا جيد جدا والكذب غير مطلوب. أنت غير مطالب بذكر التفاصيل ولا أن تكذب، وفى كل الأحوال يمكن للإنسان أن يمتنع عن الكلام ويكتفى بذلك. صحيح أنها لم تكذب لكن بسلوكها العفوى عرضت مستقبلى المهنى للخطر،

لما وصلتنى المعلومة التى تخص حياتنا الزوجية انتبهت مباشرة إلى ما يجب فعله. كان على أن أتحرك سريعا. زواجنا كان سيصبح فى مهب الريح إذا لم أفعل ما فعلت. فلا القانون ولا الشرع ولا العرف كان سيسمح بذلك الوضع لذلك قمت بوضع الأمور فى نصابها الصحيح.

هل ستكمل كتابة الرسالة؟

ربما

رئيس إفريقيا

كنا طلاب علم فى ذلك الوقت وكان لكل منا غرفته ونقتسم فيما بيننا الخدمات فى شقة فى مسكن الطلاب. وكان زميلى إمبامبا حديث عهد بالبلد الأوروبى. وفى يوم الاحتفال الكبير بالعيد القومى لبس أحسن ما عنده من ثياب إفريقية ووضع قلادات من الفضة والعاج والودع والخرز. وكان مهندما بجلبابه الواسع الأبيض ذى الخطوط الزرقاء الرفيعة والطاقية الموشاة بالرسوم الجميلة إضافة إلى الوشاح الذهبى المزركش الرائع المتراقص على كتفه. وبرغم حوارنا الذى استمر أيامًا حول الموضوع إلا أنه ظل متمسكًا بالمعلومات التى رسخت فى ذهنه وهى أن التقاليد تلزم كل فرد بأن يرتدى الزى القومى لبلده. وحاولت مرة ومرات أخر فى ذلك اليوم وبعدة طرق أن أوضح له خطأ المعلومات المضللة التى بلغته بخصوص لبس الزى القومى لكننى فشلت لأن عناده لم يترك له أى فرصة لكى يصغى إلى بأذن محايدة. وأخيرًا خرجنا وأنا متأكد من تبعات العناد.

بعد أن توترت مفاصلنا من فرط التعب وصلنا إلى مركز المدينة.

كانت الأجواء متخمة بالطرب المجنون والمسارح تملأ الساحات والشوارع وتطربها. ولما فحص صاحبى المكان وجد ضالته فى متناول اليد فسحبنى من يدى وألح على أن أرافقه إلى أحد المحلات التى تبيع البيرة الرخيصة. اشترى نصف دزينة وأصبح يعب الكأس عبًا مذهلا كمن يخوض سباقا محموما لملء الكروش. وحين شعر بأصابع الجوع تدغدغ جدران معدته أصر على ألا يأكل سوى بطاطس مقلية. ومن هنا بدأنا رحلة بحث طويلة محفوفة بالمتاعب الكثيرة نظرًا للزحمة وطول الصفوف أمام محلات البطاطس. ووضحت له أن الوضع المريح والمختلف تمامًا سيجده فى محلات اللحوم بأنواعها والدجاج والسمك لأن الناس يتجنبونها فى مثل هذا اليوم لكن عناده لم يترك لى أى خيار سوى موالاته. وكان يدعى بأن رأيه نابع من عقيدته الدينية التى تحرم عليه أكل اللحوم. وافترقنا فى لحظة مفاصلة نادرة حدد فيها كل منا معالم طريقه ومحكات بحثه عن المتعة المتاحة فى تلك المناسبة المميزة.

استمتعت بما انتقيت من معروض ثقافى مختلفة ألوانه لذيذ الطعم ممراح ثم عدت إلى المنزل عند الأصيل. أولا دفعت الباب ورائى فتوجهت مباشرة إلى غرفتى فخلعت القميص والجزمة فوضعت جلبابًا على كتفى ثم دلفت إلى الصالون ورميت بجسمى كله على الأريكة. وبعد مرور وقت ليس بالقصير كان إمبامبا يقف قريبا منى

لكننى لم أنتبه لذلك نظرا لانشغالى بالتلفاز الذى كان يبث بعض المشاهد من الاحتفال. ولما التفت فاجأتنى هيئته المغايرة تماما لإمبامبا المهندم الذى خرج معى عند الضحى. لم يسلم أى مكان فى ملابسه أو جسمه من الوسخ ولم يك هنالك أى وشاح على كتفه، أما الجزمة فكانت ملطخة بالطين ويفوح منها العفن الشديد. ولم يتفوه بحرف واحد بل رجع فأغلق الباب وبسرعة عاد فوضع جسمه المتهالك على الكرسى ثم ابتدر الحديث قائلًا:

بعد رحلة بحث مضنية نجحت فى العثور على محل لبيع البطاطس المقلية كان يديره رجل أبيض متوسط العمر ومعه أسرته المكونة من زوجته وبناته الأربع الجميلات اللائى كن يرتدين زيا تقليديا يعود إلى القرون الوسطى. وطلبت الأكل فناولتنى زوجته البطاطس وسألتنى بلهجة فضول عن هندامى فأخبرتها بأنه الزى التقليدى الإفريقى. وبسرعة أخرج الأب كاميرا حديثة فصورت لقطات تذكارية عدة مع الأسرة. وحين فرغنا شكرني الجميع لكن إحدى الفتيات لم تصبر حتى أبتعد فصاحت بدون أى مقدمات قائلة:

هذا رئيس إفريقيا

وضحكت كثيرا وضحك معها الجميع وعـدت فضحكنا وقهقنا ثم عادت الأسرة إلى العمل لكن عبارة الفتاة انتشرت قى المكان انتشار النار فى الهشيم. ولم أبتعد سوى خطوات معدودات

حتى استوقفتنى زمرة من الشباب المشاكسين الثملين وأخذنا صورا جماعية وضحكنا ورفعنا الكؤوس وأعلنا فرحتنا الكبيرة بالمناسبة. ثم جاء دور عروسين شابين واقفين على رصيف الترام فكررت معهما نفس المشهد. وانتشرت عدوى الصور التذكارية وفى كل مرة كان الناس يشيرون إلى ويصيحون:

هذا رئيس إفريقيا

العروسة النضرة توقفت حينا لكى تشاهد مع زوجها اللقطات التذكارية وتطمئن تماما من أن ذاكرة الكاميرا تحتفظ بمخزون كافٍ من الصور الجيدة. ولما انتهت تركت زوجها وشقت طريقها بصعوبة حتى وصلتنى فصافحتنى بحرارة وشكرتنى ثم تحدثنا لبعض الوقت. وفى لحظة ما شملتها بنظرة فاحصة فوجدت أنها شابة جميلة أنيقة حليبية البشرة تضع على رأسها إكليلا فضيًا مزينا بقطع من البلور أضفى على شعرها الأشقر الطويل أبهة وسحرًا نادرًا. كان حديثها طيبًا لكنه لم يدم طويلا حيث ألح بعض المحتفلين على مواصلة مهرجان الصور التذكارية. وانتهزت العروسة الفرصة لتأخذ لقطات إضافية وأخذت معها كذلك الوشاح وأخبرت زوجها بأنه هدية من رئيس إفريقيا. وأجزل الزوج الثناء على فشكرته على حمده وكلماته الطيبة لكن الخجل منعنى من استرداد وشاحى. وتحركت بخطوات سريعة مضطربة لكى أبتعد لكن استوقفنى فى

منتصف الطريق مهرج شقى أراد أن يشارك فى تكريمى.

قام المهرج بتصميم وشاح من كيس من البلاستيك وثبت عليه عبارة رئيس إفريقيا وهى مكونة من بالونات صغيرة ملونة على شكل أحرف لاتينية مثبتة بشريط لاصق. وكانت براعة المهرج وحنكته وخفة يده نادرة جدًا. وحين ألبسنى الوشاح وتاج البلاستيك البرتقالى واستعد للتصوير معى أطلق الجميع صيحات البهجة وعلا التصفير والتصفيق. وأصبحت تنهال على الهدايا من كل الأصقاع. ولم تسبب لى الزهور ولا بطاقات المعايدة ولا العملات النادرة ولا البالونات أى متاعب تذكر، لكنها كانت وشاحات الفرق الرياضية.

كان مشجعو الفرق الرياضية يضعون الوشاحات ثم يلتقطون الصور التذكارية. وفى تلك اللحظات يكون التحدى الكبير وتكون المواجهة الخطرة التى ينفق فيها الوقت الطويل فى الجدل والسباب الذى كاد فى كثير من الأوقات أن يفضى إلى التشابك بالأيدى والعراك. والسبب الرئيسى لتلك المواجهات هو طريقة وضع الوشاحات وترتيبها حسب مكانة كل فريق رياضى فى نظر مؤيديه والوقت المحجوز لكل فريق. وأحيانا كان يأتى فريق من المشجعين لينزع وشاحا وضعه الفريق المنافس حتى يتمكن من أخذ صورة ليس بها أى شعار أو أثر يدل على غريمه. وإذا حاول فريق ما وضع شعار فريق آخر على الأرض فإن الحال كان يستدعى من البعض

إعلان الحرب. وعند احتدام النزاع ووصوله إلى تلك الحالة كانوا يطلبون منى أن أصبح حكما بينهم. وكنت باستمرار أرفض الدور لكن بمرور الوقت زاد الإلحاح وأصبح الأمر ضرورة حياة لكنه كان مقلقًا جدًا.

عندما علت مكبرات الصوت لكى تعلن عن دخول الفرقة الغنائية تنفست الصعداء. وما إن عزفت موسيقى الريقى حتى صعدت إلى المسرح. رقصت رقصا أعجب الجميع، فكنت أتمايل تماما مثل بوب مارلى، وأحيانا كنت أضرب الأرض برجلى ضربا عنيفا فيسمع الجميع وقع أقدامى، وأحيانا أقفز قفزات عالية رشيقة. وعج المكان وفى لحظة ما ألحت ثلاث شابات جميلات على الصعود فساعدهن بعض المشاهدين وزجوا بهن فرقصن معى ثم انضمت أربع أخريات. وعندما نظرت حولى وجدت أن الناس كانوا يجولون بأبصارهم مثل كاميرات حديثة ترصد مسابقة رياضية. وكانت أعناقهم مشرئبة وأعينهم لامعة كالبلور وكانوا يتمايلون معى ويرقصون ويغنون.

فور انتهاء الغناء ترجلنا من على خشبة المسرح فوهبت إحداهن نفسها إلى فقبلت بأن تكون زوجة لى عما قريب. وبعد حين وبسرعة البرق سلكت كل واحدة منهن نفس المسلك. وفى ظرف تاريخى نادر أصبحت الخطيب الوحيد والزوج المحتمل لسبع شابات شقراوات

جميلات. وأخبرننى بأن الأمر جاد وأنهن يتقبلن وبصدور رحبة التقاليد الإفريقية التى تبيح تعدد الزوجات. أما أنا فكنت فى البدء أعتقد أن الأمر مجرد مزاح ولعب ينسجم مع جو البهجة والاحتفال الكبير.

أذنتهن بذهابى فقصدت دورة المياه. وفى الطريق كنت أفكر فى مآلات الخطوبة إذا ما تمسكت نسائى بما رسخ فى أذهانهن. وسلكت عدة سبل للبحث لأن وجود مرحاض مغلق لم يك بالأمر الهين. وعز على التبول فى مكان مكشوف لأن لقب رئيس إفريقيا لم يزل يحيط بى ويخنقنى. وأصبح الوقوف فى الطوابير مؤلما وكانت حدة الألم المقيم تحت السرة تزيد كلما زاد ثقل المثانة، ثم زادت صعوبة الحركة واستفحل الأمر. وفى لحظة يأس وقنوط قررت أن أذهب إلى حديقة بعيدة جدا حتى أتمكن من التخلص من كل أعبائى المؤلمة والتزاماتى.

لم تخلُ رحلتى إلى الحديقة من المتاعب، فكانت عبارة رئيس إفريقيا تلاحقنى مع كل خطوة أخطوها. فحين مررت بأطفال يساعدون أسرهم على بيع الأشياء المستغنى عنها، لاحظوا وجودى فنبهوا أمهاتهم إلى ذلك الرئيس المتجول غريب الهيئة، فهرع الجميع لمصافحتى. وعلى مقربة من المكان كان هنالك محتفلون على متن قارب فى القناة يغنون ويرقصون ويلوحون ويصرخون ثم كان هنالك آخرون وآخرون، كلهم كان يندهش ويتعجب ويحتفل

برئيس إفريقيا ويريد أخذ الصور التذكارية.

رئيس إفريقيا، إنهما كلمتان كل واحدة منهما لها سحر خاص وعبق استوائى مدهش. الكلمة الأولى مرتبطة بالعظمة والسطوة والأبهة والقدرة الفائقة على البطش، أما الثانية فهى توحى بالدفء والتنوع والبهجة والعراقة التاريخية والغنى الروحى والفضاء الرحب الملىء بالمفاجآت السارة والعجائب. والناس بطبعهم يحبون أن يخلدوا الذكريات الأثيرة عندهم خاصة تلك المرتبطة بتجارب نادرة.

بمرور الوقت أدركت أن البعض ظن حقًا أننى رئيس إفريقى زائر أو من عائلة رئيس، لا فرق، فالأمر عندهم لا يتعدى متعة يوم واحد. وكنت فى قرارة نفسى أؤمن تمامًا بأن رئاسة الدولة لم تك من بين أحلامى ولم تخطر على بالى ولم أمنى نفسى فى يوم من الأيام بأن أكون فى قمة الهرم السياسى لحزب صغير ناهيك عن أن أصبح رئيسا لإفريقيا كلها. إن الرئاسة عندنا هى أخطبوط يفترس أحلامنا الرائعة النبيلة ويحولنا إلى أشياء تدور كحجر الطاحونة وتظل أسيرة لمزاج الرئيس الفاجر العربيد. أنا مجرد طالب علم يحلم بأن يكمل دراسته ثم يرجع إلى بلده لكى يعمل فى وظيفة توفر له سبل كسب العيش الكريم فيفيد خلق الله ويستفيد. لكن الذى حدث هو موقف نادر تم فيه تنصيبى كرئيس خرافى رغم أنفى، بل أضيف إلى ذلك

خطبتى وزواجى المحتمل من سبع نساء بيض فاتنات.

وصلت إلى الحديقة ورأسى يضج بالأفكار الكثيرة المتناثرة المقلقة. ونظرت حولى واستدرت فى كل اتجاه فلم أجد فى الحديقة مكانًا ليس فيه بشر. مئات الألوف حضروا إلى مركز المدينة من أجل الاحتفال، فلا الحديقة ولا الكبرى المؤدى إليها ولا النفق تحت القناة ولا الشجيرات المتشابكة ولا شىء، لا يوجد مكان ليس به بشر. ونال منى الضنى واعتقلنى بين أسواره وانتفحت مفاصلى وشعرت بالوخز فى قدمى فتوقفت فى قارعة الطريق وأنا أفكر وأتساءل:

أكل هذه الجموع جادة فى الاحتفال بى باعتبارى رئيسًا لإفريقيا؟

وبعد حين قررت أن أعاند التعب وأتوغل فى الحديقة الكبيرة فقادتنى الصدفة إلى مكان مختلف جدًا. ومن حسن الحظ كان المكان مناسبا لإنجاز مهمتى لكن التوغل فيه كان يعنى القبول بأمرين متناقضين من حيث الرغبة وهما الأمان من المتطفلين والخوض فى الوحل. وقررت المضى قدما رغم الصعوبات الكثيرة. كنت أمشى بصعوبة وأذب عن جسمى غصون الأشجار المتشابكة وأتحمل الوسخ والعفونة الطاغية. ووضح لى أن الموقع اتخذ كمكان لقضاء الحاجة. والذين يأتون إلى هنا يقامرون بسمعتهم وفلوسهم لأن الغرامة التى تطلبها الشرطة تعادل أضعاف تكلفة التاكسى الذى يوصل الفرد إلى محطة القطارات. وفعلت فعلتى رغم إدراكى لكل

المخاطر. وجاء سنجاب متطفل ورفض المغادرة رغم تكرارى لعمليات طرده. ورميته بالأغصان والثمار والحجارة فكان يختفى ثم يعود ليظهر فى مكان آخر. والحيوان الصغير يدرك أنه محبوب والكل يجد متعة لا نهائية فى إطعامه والتحدث إليه، خاصة السياح.

لما شعرت أن حديث إمبامبا سيطول اقترحت عليه أن يذهب لكى يبدل ملابسه المتسخة ذات الرائحة النتنة. وفى اللحظة التى وطئت فيها رجلاه أرض الصالون من جديد اتسعت حدقتا عينيه وفتح فمه واسعًا وهو يشاهد المقطع الذى ظهر فى التلفاز وبدت فيه عبارة رئيس إفريقيا واضحة على ظهره. ظل واقفا خائفا يترقب. وفى تقديرى فإنه قد ظن أن رئيس بلاده قد تدخل ليجعل إدارة القناة التلفزيونية تأمر ببث تلك اللقطات وإعادتها. نهضت وتحركت حتى أصبحت بجانبه فربت على كتفه ثم قلت:

هون عليك فأنت لم تقترف أى جريمة. أنت لم تك إلا نفسك. كنت أنت حين سكرت حتى الثمالة وحين رقصت فأفضت فى الرقص وأجدت، وكنت أنت حين خطبت النساء السبع. الخطأ الوحيد هو قبولك بالرئاسة وأنت كاره لها. والرئاسة عندنا لا ترضى بالمزاح، فإما أن تقبل التكليف عن طيب خاطر أو ترفضه وتتحمل نتائج رفضك. إن الذين يرفضون التنافس على كرسى الرئاسة فى إفريقيا هم أعداء للرئيس لأنهم اكتشفوا سر اللعبة أما الذين يقبلون

بذلك فإنهم أعداء الداء للرئيس حين يريديون تغيير قوانين اللعبة. والرئاسة تجلب معها تبعاتها السيئة وأعباءها ومتاعبها الكثيرة. وكان عليك فى البدء أن ترفض ارتداء دثار ليس لك.

استدار إمبامبا نحوى وكان يبدو عليه بعض الاطمئنان. ولم أشأ أن أزيد عليه المتاعب بتوضيح كل الحقائق. والحقيقة التى كان يجهلها هى أن هنالك عدة قنوات تنقل الحدث وقد يكون من بينها قنوات تابعت وقامت بتغطية كاملة لصديقى إمبامبا رئيس إفريقيا فى ذلك اليوم.

المشـــرد

كان يخطو بحذر وبطء شديدين حتى اقترب من أحد المارة وتحدث معه. كان واضحًا على هيئته أنه مصمم على إكمال رسالته التى ما عبأ بها رجل ولا امرأة، ولو من باب المداهنة. ولما تأكد لجاش أن الرجل لا يحمل أي بوادر اهتمام، توقف لبعض الوقت ثم استدار راجعًا إلى مكانه. وكنت حينها أخطو مسرعا لكن طريقة حديثه جعلتنى أستدير راجعا إليه. ولما وصلت أخبرنى بأن محطة البص خارج نطاق الخدمة وأشار بيده إلى المحطة البديلة. وكان يحدثنى بنفس الطريقة التى حدث بها كل الذين سبقونى. ولما أخبرته بأننى أعلم بالتغيير الذى حدث، ضحك ضحكة عالية مجلجلة هزت جسمه هزا واضحا. ومددت يدى مصافحا فأمسكها بكلتا يديه البدينتين المفلطحتين الخشنتين وعرفنى بنفسه.

شعر الرجل العجوز بحيرتى فأعطانى جريدة قديمة من تلك الصحف التى توزع مجانًا، فأفردتها على الأرض وجلست بجانبه. كان وجهه المتسخ المجعد يرسم ابتسامة ترحيب غير مفتعلة. وكان

يلبس قبعة أعياد الميلاد ذات اللونين الأحمر والأبيض على الرغم من أننا كنا فى منتصف نوفمبر. وقبل أن يثبت العود بين أسنانه عدل من وضع قبعته. وحمل إبريق ماء وتحرك حتى وضع ظهره على جذع شجرة دلب معمرة فأكمل عملية السواك فتمضمض ثم عاد إلى مكانه.

جلس بجانبى فتحدثنا كثيرًا وضحكنا. وأعجبتنى نكات العجوز وتعليقاته الطريفة التى كان يلقى بها على المارة وطريقة ضحكه التى كانت تظهر صفين من الأسنان النظيفة وثلاث فتحات لأنياب مفقودة. لكن الحديث توقف فجأة على أثر إلحاح زميله الجالس على الكنبة والذى كان يلح فى الطلب ويكرر باستمرار.

جاش، هلا أسديت لى خدمة، من فضلك؟

جاش، هلا أسديت لى خدمة، من فضلك؟

ولما استفحل الأمر وضع جاش القبعة على الأرض وانتصب واقفا وهو يظهر تململه ثم أدخل أصابعه بين ثنايا شعره الطويل الكث وجعل يحك فروة رأسه. وعدل من وضع سترة ضابط الأمن ذات الشريط اللاصق التى كان يرتديها طول الوقت، ثم تحرك متجهًا نحو صاحبه والتبرم ظاهر على وجهه. ولعل حرصه على عدم التعدى على القانون هو الذى جعله يثبت شريط قماش أحمر اللون على ظهر البدلة لكى يخفى به كلمة أمن. وأعطاه صاحبه علبة مشروب غازى

رخيص ففتحها فأعطاه أخرى فحملها إلى ثم قال بصوت مرتفع:

هذه هدية من بيت.

ولوحت لبيت بالتحية فرد على بالمثل وظل جالسًا على الكنبة ومسندًا ظهره على الجدار. وعلى الرغم من حركة رجليه المستمرة فإننى قد تمكنت من التعرف على العلامة التجارية الراقية لجزمته الملطخة بالطين الغض. وعب جاش المشروب بسرعة ثم قام فتفقد الشنط الكثيرة والأكياس المكومة على الأرض والرزم المربوطة بالحبال. ولما سألته عن حاله أخبرنى بأن المقام قد طاب له فى هذه المحطة.

وجلس جاش فزحزح نفسه حتى اقترب منى كثيرًا ثم اعتدل فى جلسته فوجه سؤالًا مباشرًا إلى:

أنت صحفى، أليس كذلك.

لا.

رددت عليه بحزم لكنه لم يقتنع بإجابتى فابتسم فأردف قائلا:

كلهم يقولون هذا الكلام.

وضحك ضحكته المجلجلة. ولم أتفاعل مع ضحكته هذه المرة فصمت وبعد هنيهة أضاف:

يمكن أن تجرى معى لقاء صحفيًا وإذا شئت أنسبه إلى شخص مغمور من وحى خيالك، ولا تقلق فأنا لن أحدث أحدًا بما جرى

بيننا.

استدرت ببطء شديد، فلاحظت أن بيت كان يبدى استعدادًا واضحًا للتدخل ويتهيأ للإدلاء بدلوه فى الحديث. ونهضت فنفضت ثيابى وتحركت نحوه، وكنت فى تلك اللحظة أفكر فى طريقة تمكننى من كسر حاجز الحذر والبرود بيننا. ولما اقتربت منه هاجمتنى العفونة المنبعثة من ملابسه ذات الدرن الكثير. وبادرنى بالحديث المرحب وثرثر كثيرًا. كان يريد أن يتقمص سريعًا دور الصديق الحميم. وكان من حين لآخر يسرد نكاتا بذيئة ويضحك قبل ضحك الآخرين. وحين كنت أستفسر عن شىء كان يرد على بصوت عالٍ ويواصل الضحك وأحيانا كان يربت على كتفى. وكنت أبدى تبرمى الواضح من سلوكه فأنتبه لذلك فى وقت متأخر فقل حماسه. وأخيرًا هدأ فأشار بيده اليمنى إلى صاحبه فريد. قال إنه مشرد آخر انطوائى يجلس دومًا على الجانب المقابل من الشارع ويتكئ على الحائط.

لم يتحمس فريد، ولم يرد على تلويحة بيت. وأخبرنى بيت بعد ذلك أنه شخص مريب. ولما لوحت له رد على التحية وابتسم لكنه ظل يراقبنا خلسة. وتدخل «جاش» فقال: إن الرجل انعزالى لكنه طيب القلب وشهم. ورجعت إلى مكانى فجلست متكئًا على الجدار مطرقًا برأسى والتزمت الصمت لكى أتمكن من استرجاع التفاصيل وإعادة ترتيب أفكارى.

قام بيت من مكانه وتحرك بحذر ثم وضع قطعًا من كرتون وجلس عليها. وأخرج علبة أنيقة بها سيجار كوبى غليظ وأعطانى واحدة ووهب جاش قطعتين. وقام الأخير بلف السيجارتين بمنديل ثم وضعهما على كيس ووضع الكيس فى شنطة. وضحك بيت وبدون مقدمات قال له:

من المؤكد أنك ستشربها حين يحل عيد الميلاد القادم.

صمتنا فشعر بيت بالحرج. وانتظر حتى فرغ جاش من لف سجارته المصنوعة من تبغ رخيص، فأشعل له بقداحته الأنيقة وأصبحا يدخنان بشراهة. كانت الشمس فى تلك الأثناء تخطو حثيثا نحو المغيب والطقس أصبح يميل إلى البرودة. ولم يخفِ جاش العجوز شعوره بالبرد فأخرج زجاجة فودكا بولندية رخيصة الثمن وصب منها على كؤوس بلاستيكية صغيرة وناول كل منا. ولم يشرب بيت كأسه بل أخرج علبة معدنية بيضاء صغيرة بها ويسكى أسكتلندى وعب منها ثلاث جرعات على التوالى. ورفع جاش كأسه واحتفلنا

كان بيت يحتسى الويسكى بسرعة كبيرة جدًا ولا يتوقف إلا لكى يلتقط أنفاسه أو لكى يملأ العلبة من جديد أو لكى يمضع حبات من الفول السودانى أو الفستق. وبعد نصف ساعة كان قد تمكن من وضع نصف لتر فى كرشه الواسعة، الأمر الذى جعل ملامح السكر تبدو واضحة على وجهه الذى كسته حمرة وأصبح كثير الثرثرة. عند

المزاح والهزل كان يضحك بصوت عالى الذبذبة مظهرًا أسنانه المتسخة ولسانه المستطيل المدبب. وكان لسانه السميك الأحرش يتحرك مثل سمكة تحاول السباحة عكس التيار. وبعد نصف ساعة أصبح حديثه متقطعا وأصبحت عباراته تخرج بصعوبة وبطء شديدين. ولما انتبه جاش لحال رفيقه أخذ منه هاتفه الجوال وأدار أغنية من موسيقى البوب الراقصة.

وقف بيت بصعوبة وارتجل رقصة غريبة. فى تلك الأثناء جاءت مجموعة تتكون من ثلاث فتيات وشاب يشبههن فى هندامه ومشيته وطريقة حديثه. وكان الشاب يرتدى بنطالا نسائيا ضيقا من الساتان الأبيض ويلبس قميصا وردى اللون. وكان يضع إكسسوارات نسائية ومكياج يشبه مكياج رفيقاته وعطرا فواحا. وألقت المجموعة التحية ثم شاركتنا الرقص. وقف جاش واقترب منهم فعانق الفتيات الواحدة تلو الأخرى ثم مد قبضة يده إلى الشاب الذى قابله بالمثل حتى تلامستا. وبعد الانتهاء من طقوس التحية قدم إلينا جاش أفراد المجموعة وأشار إلى أنيتا التى كانت تضع إكليلا من الزهور على رأسها ودعانا إلى تهنئتها بعيد ميلادها. وكانت الفتاة تلبس فستانا حليبى اللون به زركشات ذهبية وتحمل بالونا أبيض اللون كتب عليه اسمها بحروف حمراء كبيرة لماعة. وقمت بمصافحة أنيتا الفتاة الرشيقة متوسطة القامة وذات الأعين الساحرة والجاذبية الطاغية ثم

قمت بمصافحة الثلاثة أجمعين. ولما جاء دور بيت لاحظت أنه رفض أن يصافح الشاب الذى تقدم نحوه مبتسما ومتحمسا.

أخرجت إحدى الفتيات كيسا به بسكويت وشيكولاتة ومكسرات وفرقتها على الجميع ثم فتحت زجاجة شمبانيا كبيرة. شربنا وأدرنا جهاز الموسيقى من جديد وابتهجنا وهنأنا أنيتا وقد حدثتنى فيما بعد بأن تلك لم تك إلا فقرة صغيرة من ليلة عيد ميلادها، وأن المراسم ستتواصل فى مطعم ثم تختتم فى صالة ديسكو. وانضم إلينا المشرد المريب فريد ورقص بحماس وصفق كثيرا وصرخ صرخات عالية. وكان يحمل كرتونة صغيرة بها سندويشات جبنة فقام بتوزيعها على الجميع وحين قربت السندويتش من فمى شعرت بأنه غير طازج وشاذ الرائحة فوضعته جانبا.

جذب الرقص والموسيقى والصياح عددا كبيرا من السياح معظمهم آسيويين فصنعوا دائرة كبيرة. وكنا نصفق ونتمايل ونرقص معًا. وكان جاش يتوقف بين الحين والآخر ويذهب إلى السياح ليخبرهم بأن المحطة قد ألغيت. وبرغم إلحاحه فإنه لم يجد من يعير حديثه اهتمامًا يذكر. ولما شعر بالانهاك جلس فأخرج جيتارًا من شنطة قديمة وعزف وغنى أغنية كلاسيكية. أوقفتا الجهاز وغنينا معه. ولم يستطع بيت أن يخفى تبرمه. ولما كثر إلحاحه لبى طلبه فأديرت موسيقى البوب من جديد. ومن جديد أصبح الجو راقصًا ومجنونًا.

وقام بعض السياح بمشاركتنا الرقص. وأصبحت البنات يرقصن مع جاش ويمسك كل بيد جاره. وطلبوا منا الانضمام إلى مجموعتهم فاستجبنا. وشكلنا دائرة صغيرة مغلقة ترقص وتغنى وتصفق. وكان بيت يتجنب باستمرار مسك يد الشاب. وانضم فريق من السياح إلى الدائرة لكن أحدهم ولج إلى داخل الدائرة وأصبح يرتجل رقصًا غريبًا. وبرغم الغرابة فقد أعجبنا رقصه وصفقنا له كثيرا. وحين ظهرت عليه علامات التعب قدمت أنيتا اقتراحا بأن يكون الرقص على شكل منافسه فغير اقتراحها مجرى الأمور.

كان الاقتراح هو أن تبدأ المنافسة فى الوقت الذى يقبل أحدنا بلبس التاج فيختار رفيقًا له فيدخلان إلى وسط الدائرة ثم يرقصان إلى أن يقتنع الجميع بإجادتهما للرقص وفى ذلك الحين تعطى الفرصة لمنافس آخر، والفائز هو الأكثر ارتداء للتاج. وبدأت المنافسة بصديق الفتيات ورفيقة له وعلى الرغم من صعوبة المهمة إلا أنهما نجحا فى إقناع الجميع فسمح لهما بإفساح المجال لآخرين. وتبادلنا الأدوار. وكان الشاب المتأنق مقنعًا فى الرقص وذا خفة ومهارة عالية خاصة بعد خلعه للحذاء النسائى ذى الكعب العالى الذى كان يضايقه. وفى المرة الوحيدة التى اقترب فيها الشاب من بيت، قفز الأخير مبتعدًا عنه ثم رفع قبضة يده مهددًا. ولما ظهر التعب عليها أوقفت أنيتا الموسيقى وهمت المجموعة بالمغادرة.

لما غادرت المجموعة تضجر بيت وظل محتارًا جالسًا على الكنبة لا يفعل أى شىء سوى شرب الويسكى. ومع مرور الوقت أصبح يشرب بشراهة مخيفة. ولما اقترب منه بعض السياح الآسيويين وجد ضالته وأصبح يسرد لهم حكايات مليئة بالترهات والأكاذيب. وكان يحكى ويضحك باستمرار فتهيأ له أن الناس أصبحوا يجارونه فى الضحك لأنهم أعجبوا بنوادره وحديثه المجاوز لحدود الأدب والموغل فى التهتك.

الضحك لا يلتزم بالضرورة بقانون محدد فأحيانا يبدأ القوم من نكتة ما ويزيدون عليها آخر فتنتشر العدوى بسرعة وتعم المكان وقد يصل الأمر إلى حالة تشبه الوباء. وفى بعض الأحيان لا يكترث الناس للمبادئ والقيم. وفى حالة بيت اعتبره السياح مهرجا فمدحوه وأفاضوا فى إطرائه فاعتقد الرجل أن له موهبة كوميدية فطرية فأصبح يرتجل النكات السمجة ويقهقه بصوت عالٍ وأحيانا كان يسلك سلوكا غريبا ومثيرا للقلق. وأصبح يحيى جمهوره عن طريق تلامس قبضة اليد. وسرت عدوى التلامس كما تسرى الحمى فى الجسد. وبعد حين شعرت بالملل فاقتربت من جاش فوجدت عنده نفس المشاعر. ولما شعر بيت بتناقص الاهتمام به تحرك بجسم متثاقل وجلس بالقرب من جاش.

حاول جاش الابتعاد عن بيت لكنه وجد نفسه محاصرًا فى أقصى

ركن المحطة. وكان يحاول إبعاد الأبخرة شديدة العفونة التى كانت تخرج من فم صاحبه. كان بيت يريد إشراك جاش فى أمر ما لكنه عدل عن الأمر فتراجع قليلا ثم اعتدل فى جلسته وظل يراقب الجميع وهو صامت. وبلا مقدمات سألته عما يدور فى رأسه. ابتسم فعدل من وضع قميصه وحرك قدميه فاعتدل فى جلسته ثم قال بصوت واضح تبدو عليه الثقة المفتعلة:

سأحكى لك قصة حدثت لى فى مكان قريب من بيتنا. اعتدت أن أذهب إلى ذلك المكان لأشاهد تمارين التدريب على التحليق بالمنطاد. وفى عصر أحد الأيام عمدت إلى مخالفة القوانين والقفز فوق الحاجز ثم ركضت بسرعة حتى وصلت إلى مدخل المنطاد. كان الناس فى تلك اللحظة على وشك الانطلاق. وأخبرونى بألا مجال للدخول البتة لكنى عاندت وقفزت إلى سطح المنطاد. وكان السطح أملسا شديد الملوسة فتدحرجت بسرعه ولحسن حظى وجدت قضيبا حديديا بارزا فتشبثت به. ولما لاحظ الركاب وجودى أعطونى حبلا لكى أربط به نفسى. وقالوا لى إنهم ذاهبون إلى مكان بعيد. ولما ابتعدوا نظرت إلى المزارع البعيدة وسفوح الجبال من تحتى فازداد قلقى. وفى لحظة ما أبصرت عربات شرطة تقف على طريق المرور السريع. ولم أفكر كثيرًا فتخلصت بسرعة من الحبل وهبطت إلى الأرض فى نفس المكان الذى كان يقف عليه رجال الشرطة. حدث ذلك بعيد

غروب الشمس. وأعطانى الرجال قهوة وسندويتشات وجاتوه. وحين انتهوا من عملية تفتيش السيارات وفحص الأوراق حملونى إلى أقرب محطة بص.

انفجر جاش بالضحك الكثير. وبدأ الضحك مباشرة بعد سماعة لكلمة بص. وكانت ضحكته عالية جدًا سمعها كل المارة. كان يضحك وجسمه يهتز كله وكان أحيانا يرفس الهواء برجليه ويضرب بكعبيه على الأرض. فى البدء كنت مندهشا فاكتفيت بالتبسم ولما أكثر العجوز من الضحك ضحكت معه ثم قهقهت كثيرًا. ومن جديد انتشرت العدوى. كان بيت يضحك معنا لكنه يعود للهدوء وينتظر لكى يكرر جزءًا من عباراته. وأخيرًا أصبنا بما يشبه الهستيريا وشعر بيت بأن انتظاره سيدوم طويلا فصاح ليبلغنا بأن قصته حقيقية ثم أقسم على ذلك. وضحك جاش مرة أخرى لكننى شعرت بالحرج فجذبته من يده فنهضنا وابتعدنا من المكان.

حين عدنا أخبرنا بيت أنه لم يك ثملا على الإطلاق. وزاد على ذلك أنه لا يخاف من الشرطة وليس لديه ما يخبئه عنهم. وحدثنا عن أهله الذين ادعى أنهم أصبحوا يضطهدونه لأنه طالب بالأجر المناسب نظير الخدمات التى كان يقدمها لوالده رجل الأعمال الكبير. وحسب إفادته فإنه لم يكمل تعليمه الثانوى لكنه كان عبقريا استفادت من أفكاره شركة الأسرة واستخدمت خططه فازدادت أرباحها. كذلك

ادعى أنه خبير مميز فى العلاقات العامة والتسويق. وعلى العكس من الرجلين أظهرت اهتماما بحديثه. هذا الاهتمام شجعه على أن يمسك بيدى ويجذبنى لكى نبتعد عن رفيقيه. واقترب منى كثيرا وأخبرنى بوضوح أنه ينوى الانتقام من أسرته وأنه سيعطينى كل الوثائق اللازمة والصور الخاصة وصورة من بطاقة هويته وموافقة مكتوبة بخط يده وممهورة بتوقيعه. وأكدت له من جديد أننى لست صحفيا وليست لدى أى نية لمساعدته. وحين يئس منى سأل عن مدى تأثير شبكات التواصل الاجتماعى وعن كيفية استخدامها.

سادت فترة صمت نهض بيت بعدها واعتدل فى وقفته. كانت تبدو عليه ملامح الضجر والإحباط. وتحرك مبتعدا فقطع مسافة عشرين مترًا ثم وقف لكى يتبول. كان مصرا أن يقوم بفعلته فى مكان مزدحم بالمارة. والواضح أن من يلاحظه لن يبذل مجهودا كبيرا حتى يهتدى إلى أن هذا الرجل شخص مستهتر غاية الاستهتار ولا يهتم بمبدأ ولا قانون ولا عرف ولا تهمه الغرامة التى غالبا ما تفرضها الشرطة فى هذه الحالات. والناس يعرفون أن الحذر واجب مهما كانت الضغوط الطبيعية. وحين عاد بيت وجلس على الكنبة حدجه جاش بنظرة تحمل فى طياتها الاستنكار والامتعاض الشديد ثم قال:

على أي حال ستجد لك عندهم سقفًا يؤويك لكن اعلم أن الشرطة أصبحت ذكية جدا فهى لا ترسل إلى السجون سوى

المجرمين الكبار. وجل ما يفعلون معك هو أنهم سيفرغون جيوبك من النقود أو يلزمونك بأداء خدمة اجتماعية. وإذا عصيتهم فإنهم سيضربونك على إليتك.

وحين أكمل حديثه انتظر لثوانٍ معدودات ثم قهقه عاليًا جدًا.. وأصبح الجو متوترًا لكن بيت لم يستسلم لصاحبه فأردف قائلا:

سأخبر الصحافة وجمعيات حقوق الإنسان. كل إنسان فى هذا القطر له كامل الحقوق.

وقاطعه صاحبه قائلًا:

ما عدا حقوق التبول فى الشارع العام. قلت لك إنهم سيضربونك إذا نفد صبرهم.

ولم يشأ الرجل أن يستمر فى مجادلة جاش فآثر أن يتكئ على الجدار ففغر فمه واسعًا ثم تمطى وتجشأ. كان نفسه حارا ونتنا جدا. وفى تلك الأثناء ذهب جاش فى اتجاه فريد فلحقت به فوجدته يوشوش له فى أذنه بحديث ما. وبدوره همس فريد فى أذن صاحبه الذى كان يستمع إليه باهتمام ويمسح ضفائر لحيته الطويلة والتى كان يربط أواخرها بسلاسل حديدية رفيعة.

جاءت مسيرة صغيرة لجماعة دينية هندية. وكان يرافق المسيرة نفر من رجال الشرطة بهدف حفظ النظام والأمن وتسهيل الحركة. وكانت الفرقة تحمل صورة كبيرة لزعيمها وشعارات تحض على التسامح

وتحث الناس على الدخول فى دعوتها وكانت تعزف موسيقى راقصة ويضرب الرجال والنساء على الطبول ضربا قويا ويرقصون ويغنون. والتف حولهم السياح وأصبح بعضهم يرقص على أنغام الموسيقى ويهتف ويصفق. وذهبنا نحن الثلاثة إليهم وبعد لحظات انضم إلينا بيت ثم انسل حتى اتخذ له موقعًا داخل المسيرة. وكان يرقص بصورة هستيرية. وبعد دقائق قليلة أصبح يخلع ملابسه القطعة تلو الأخرى ولم يتبق له سوى السروال الداخلى ثم أصبح يرقص رقصًا ماجنًا. واشتد حماسه لما صفق له الجمهور وشجعه بعضهم.

حاولت الفرقة أن تتفادى الرجل حتى تتمكن من مواصلة مسيرتها لكنه أصبح عائقًا أمامها خاصة بعد تزايد عدد المشاهدين. ولما اشتد الصخب والتصفير والتصفيق والصياح ذهب إلى أحد المتفرجات وانتزع منها شالها وربطه على وسطه وأصبح يرقص رقصًا أشد مجونًا من ذى قبل. وحين صفق له بعض الناس وشجعوه وضع الشال بين فخذيه وأصبح يتهتك. وتمادى فى غيه وأعلن أنه سيفعل بصورة زعيم الفرقة مثل ما فعل بالشال ثم توجه مباشرة نحو حامل الصورة. وتمكن الناس من إيقافه وصده لكنه عاد إلى المحاولة من جديد. وفى كل مرة كان يصبح أكثر عنفا وأشد مقاومة. واتضح للناس أن إخراجه من الساحة أصبح واجبا ملحا لكنهم كانوا يخشون العواقب القانونية. وأخيرا أوقفته الشرطة ودفعته إلى

العربة. وحين تم زجه فى داخل العربة أصبح يتأوه ويصرخ بصوت عال ويستنجد بالآخرين. وحين اقتربت من المكان طلب منى أن أوثق للموقف بالكاميرا.

اقتربت من جاش بعد تحرك الشرطة وسألته عن رأيه فى الذى حدث. أمسك بضفائر لحيته بيده اليسرى ثم أشار بالأخرى فى اتجاه عربة الشرطة وقال:

جاسوس قذر، كنت أظن أنه أكثر شجاعة. إنه مجرد دعى رعديد.

كان وجهه متوترا وعيناه ملتهبتان من فرط الغضب. وبعد لحظات قال:

هل لديك سجارة.

أنا لا أدخن

وكذلك لا تسكر! كيف تستمتع بحياتك أيها الشاب؟

أطرقت مليا أفكر وكذلك فعل جاش وفريد.

غريب أمر المشرد بيت. أراد أن يظهر تطرفه فى السلوك السمج والعجرفة وتحدى القوانين حتى يلفت إليه الأنظار. لكن الناس لم يهتموا بحبه للشهرة ولم يتحرى معظمهم عن أفكاره ورغباته الحقيقية. واستأسد لكنه وقع فى يد الشرطة فجعل يصرخ كالذئب. وخلع ملابسه فى مكان عام فاشمأز منه الناس. ولو كان المقام مختلفا والمتعرى شخص آخر لاستحسنت النساء ذلك على الأرجح. الناس

عادة يشد انتباههم الجسم العاري ولو كان المجسم تمثالا بلا حياة. لكن فى حالة بيت نفر منه الناس وفروا كما يفر السليم من الأجرب. والذين صمدوا وتصدوا له، فعلوا ذلك لأنهم كانوا يريدون حماية الفرقة الدينية منه.

فى بداية لقائى بالمشرد بيت قال لى: إنه ترك فى البيت بدلته المرصعة بالذهب وقال غير ذلك الكثير. استمعت له لكنى تجاهلت الكثير. والملابس التى كان يرتديها سميكة وساترة لكنها ملطخة بالطين وتئن من فرط العفونة. وأحيانا لا يملك الناس خيارات كثيرة فيلبسون ما تجود به الأيام وهم راضون بحالهم قانعين. وفى حالة بيت فإنه كان عاريا قبل أن يتعرى. عاريا ولا شىء جذاب فى جسمه، مثيرًا للقرف ولا إثارة محببة يمكن أن يشعر بها الأسوياء. كل الناس رفضوه، البنات المحتفلات بعيد الميلاد وصديقهن الممراح اللعوب والسياح وكل من كان يمر بذلك المكان

اقترب منى جاش من جديد. ولم يلاحظ انشغال ذهنى أو ربما كان هو الآخر مشغول البال. وبدون مقدمات قال:

هو ليس قبيحًا لكنه منفر إلى أبعد الحدود

لم أرد عليه لكن حدثت نفسى قائلًا:

كان يريد أن ينتقم لنفسه وهو الظالم لها. وبغض النظر عن دوافعه فإن العدالة ليست هى فى الانتقام. العدالة تكمن فى تسوية ميزان

الحق حتى لا يميل إلى أحد الطرفين على حساب الآخر. ومهما ادعى بيت فلن يستطيع هو ولا يستطيع أى إنسان آخر أن يؤكد أن أهله لم يحسنوا معاملته.

فجأة ظهر بيت أمامى وقطع حبل أفكارى من جديد. سألته عن سبب عدم إبقائه فى مخفر الشرطة فقال:

وجدوا فى جيبى بطاقة الائتمان.

وكانت ملامح خيبة الأمل بادية على وجهه ومدللة على أنه ضيع آخر فرصة للتشهير بأسرته.

بعد سنوات من تلك الأمسية النادرة علمت أن بيت قد رجع إلى بيت أهله. وقد تكون التجربة ساعدته على فهم الأشياء بصورة صحيحة حتى يعتبر. وهو كان يعلم سلفًا أن أسرته أسرة مسيحية محافظة. وعلى الرغم من محافظتها فإنها تترك لأفرادها هامش حريات كبيرًا لكن لكل أمر حدود. وفى كل الأحوال فإن مهمة بيت ستكون صعبة للغاية لأن تلك الأسرة سوف لن تتسامح مع شخص يقدم على زنى المحارم.

العـــــودة

فى اللحظة التى اتخذت فيها قرار العودة، خصصت للخطوة الأولى بأن تكون هى الصعود إلى العلا، وأنت كنت تعلم علم اليقين بأن الصعود إلى القمة أمر محفوف بالمخاطر دائمًا وأبدا، فلم التعجل؟ وهى كذلك قمة بل هى قمة القمم وتاج الملوك وسقف الأمنيات النبيلة لكنك تصر إصرارا على المضى قدمًا ولا تدرى متى ستصل إليها.

وأنت تمضى بعزم أكيد وتتجاهل كل العوائق وكل المحاذير وكل مطبات السفر لأنك تأمل فى النجاح والإنجاز الكبير. والأمل يغرى بالمخاطرة ويعطل خلق التحوط، لحسن حظك. وأنا أعرفك تمام المعرفة وأعلم أن إيمانك بالهدف هو زادك الذى لا ينضب وتصميمك هو سلاحك المتحفز دوما لمنازلة أعظم التحديات وأقساها وأكثر المخاطر هولا وإلحاق الهزيمة بها.

هى كذلك أتت إليك بطوع إرادتها وأعانتك على حزم الحقائب ولوازم الرحلة الطويلة. وهى نفسها التى شهدت لها أنت وشهدت

أنا وكل الأصدقاء بأنها شهمة وكريمة وطيبة المعشر. ولا غرو فإنك لم تندهش حين عرضت عليك خدماتها عن طيب خاطر وبلا شروط. والشيء الوحيد الذى طلبته منك هو البوصلة لأنها الهادى الرشيد والمعين الفعال والرفيق القادر على أن يقدم لها الإسعاف العاجل عند مفارق الطرق المبهمة أو حين تتحداها ضبابية الرؤية.

وحين تحركت رفيقتك نحو الهدف عبست وشخص بصرها إلى الأفق البعيد وغابت جثتك الضخمة عن شعورها. وفى لحظة نادرة تبدل حالها وعادت إلى سيرتها الأولى فبرقت ابتسامة الإشراق والرضا وكست وجهها كله. وفى ذلك الحين عاد إلى نفسك اطمئنانها المعهود وإيمانها بأن الرفيقة ستوصلك إلى مرامك مهما كلف ذلك من عناء ومشقة.

وفى لحظة ما لكزتك يد البالونة فاهتزت فرائصك لكنها سريعا ما استدركت الأمر فأعادتك إلى حال الطمأنينة وألبستك ثوب الوقار الذى سقط منك. وتبسمت البالونة ضاحكة وقالت لك:

لماذا جفلت؟ ألم تحدثها بكل التفاصيل؟

ورفعت المركبة عنقها وأدارت وجهها وحدقت فيك مليًا وأنت بدورك ركزت بصرك فى عينيها الحلوتين فوجدت أن البسمة ظلت لعدة دقائق مرسومة على وجهها الجميل الأخاذ. وحدقت فيك مرة أخرى وتحدثت عيناها كثيرًا وردت مقلتاك عليها وأبلغتها رسالتك

الرقيقة. ولما لمحت قسمات السكينة على وجهها قلت لها:

التفاصيل تهمنا جميعًا بالطبع لكن ليس ضروريًا أن يخرج المرء كل ما فى جعبته.

ولأنها كانت تتوقع منك مثل هذا الرد الهلامى فإنها لم تك مستعجلة فى الكلام، فحدقت فى البدء مليًا فى الأفق البعيد فتدبرت أمرها بتؤدة ثم قالت:

التفاصيل مهمة لى لكن بالنسبة لك فإنى أعرف أن الأهم هو الهدف.

نعم كانت بدايتك هى البداية الصحيحة لأنك فى المقام الأول حددت الهدف. وما دام المرء يعرف الهدف جيدًا ويعرف تمامًا أين المنبع وأين المصب وما هى المعالم البارزة فإن أمر التفاصيل يصبح دومًا فى متناول اليد. وها هى البالونة تحلق بك وتسلك مسارًا مبهمًا ولم تطلب منك سوى مدها بالمزيد من المعلومات. ولو كانت البالونة فى مقام سائق عربة الأجرة فإن الذى يهمها أكثر من غيره هو معرفة المعالم البارزة والاتجاهات والطرق الرئيسية لكنها لن ترهق نفسها بحفظ المداخل ومواقع المنازل. وأخبرتك رفيقتك بأن الذى يشغل بالها فى تلك اللحظات هو معرفة مسارات الأقمار والكواكب والنجوم والمجرات والشهب والنيازك. وعندها لم تتردد البتة فحدثتها بما عندك وإذاك شعرت بأنك أنجزت قسطًا كبيرًا من المهمة. وتركتها تتحدث

وتسترسل فى الحديث وبينما كانت هى مشغولة بالثرثرة، وهبت أنت لنفسك الفرصة لكى تحلم.

وهمهم صوتك الداخلى فظننته صوتا مجلجلًا يعلو على كل الأصوات المنسابة فى الفضاء، لكن هيهات. ومع ذلك فإن الأثير تواطأ معك وحمل كلماتك إلى العشيقة التى كانت مشاعرها مهيأة تماما لاستقبال رسائلك. وكان الصوت يقول:

على رسلك لا تتلهفنى يا حبيبتى فإنها حتما ستأخذنى إليك. اشتياقى إليك هو البوصلة والمركبة، تعلم ذلك علم اليقين. وبوصلتى تستمد طاقتها من نبع حبنا الكبير. والبالونة ليست وحدها بل كل نساء العالم يدركن بأن هواك تيمنى وأضنانى وأقعدنى عن الاستمتاع بحياة أنت مبعدة عنها. وفى اللحظة التى وصلت فيها إلى هناك وأدركت أننى فى جب الغربة كتبت سيرة حبنا الكبير بأحرف من نور ظلت تتلألأ على صفحات السماء وتتبسم سطورها المنقوشة على أجساد المزن.

وأنت تشعر الآن أن البالونة تتوقف كثيرًا لكن هذا طبعها فلا تقلق. وهى امرأة رزينة لا مستهترة ولا حمقاء وهى تسير الهوينى إذا أرادت وتخب فى أوقات أخرى. ولما أبصرت أيادى البوصلة تتهادى ذات اليمين وذات اليسار، أثلج صدرك إذ تاكدت من أنها تعمل بكل طاقتها وتستمد نورها من عينى محبوبتك الرائعتين.

ويعلو همسك فيحمل الأثير كلماتك من جديد ويوصلها إليها.

لا زاد إلا زاد استقيته من مقلتيك. وعيناك درتان سماويتان نقيتان فيهما منبع الإلهام وفيهما الشهد الملكى الذى لا ينضب. والألق المنثال على الآن هو ثمار الهيام حين لاحت بوادر الوصال، والدمع الذى أهرق من قبل هو ثمار الشوق حين كان يضايقنى شبح الانقطاع والغربة.

والآن يزداد شوقى إليك فأشعر بأن عينيك مشمولتان بالبريق الساحر الذى عهدته دوما والدفء الدفاق. وإنى أشعر أن الصبا جعل ينمو ويستطيل ويمد إلى حبال الوصال. ومن فرط لهفتى جعلت أشد ثم أشد الحبال. جنون الضياع يحاصرتى ويجعلنى بصيلة فى مهب رياح الخرافة.

ويهجم عليك الشعاع المتين القويم فيقطع عليك حبل أفكارك. ويدغدغ الصبا نبضات قلبك. وهل كنت غرًا وقتها؟ هلا اعترف، اعترف الآن، هل كنت غرا؟ فلا ضير فى الاعتراف. وحين قررت السفر أطعت مزاجك وتركت له الحبل على القارب فلم تمهلك روحك الأمارة لكى تلتقط أنفاسك. وإذ يشتد الشوق إلى المحبوبة ويزداد الصبا وينمو ويشب ويترعرع ويصبح بطلًا وتكبر البطولة فى كل يوم وفى كل ثانية، تقرع أنت أجراس الاستغاثة!!! وفى زمن ما كنتما معًا فى سقف واحد ومع ذلك كنت تتوق إليها صباح مساء بل كان شوقك يولد من جديد حين يغيب ذاك الطرف عنك أو تغفل

العين عنه. وترتفع حمى الهيام ويشتد أوارها كلما تحركت عقارب الثوانى. أنت تريد الوصال، تأتى هى إليك، تمضى أنت إليها، لا فرق، أنت لن ترتوى أبدًا من نبع الوصال.

الذكريات هى، كل الذكريات، وهى كانت ومازالت ذكريات غضة أشجارها حبلى بالأمانى وأزاهرها بضة. والعطور تفوح منها وتجدد دماءها من عبق عشيقتك الاستوائى الفتان. ثمل أنت لأنك أسير عطرها الأخاذ. وأنت لا تنفك تنشق العبق الآتى من بعيد وهو سليل عطرك نفسه الذى تركته بمعية الشموع عند الرحيل. وهى مليكة الشموع التى كانت تطرد عنك وحشية شتاء الغربة الممقوت.

وإليك بعض أحرف كان قد خطاها يراعك وقد حفظتها أنا وحفظها كذلك كل الأصدقاء عن ظهر قلب.

ماء الذكريات رحيق وردك. وحين أتنفس عبير الذكرى يأخذنى ذلك الرهط ويزج بى داخل دهاليز تلك الزكية روحك. وتاريخ الإنبات يبدأ عندك. وقد غرست نبتتى فى أديمك الأصيل وسقيتها من نبع دفاق، نبع روحك. وفى أشجار جنتنا تستظل سيرتنا العطرة، طاهرة مصونة تستظل لا يقربها حاسد ولا عاذل رعديد.

زاد الحب أقطفه من شجرة وارفة، زيتونة شامخة تنهل من نبع هوانا الطاهر. وفى كل يوم يذهلنى نماء الحب. وهى دهشة تتجدد فى كل ثانية بل فى كل جزيء صغير من جزيء الثانية. وهى دهشة ألذ

من دهشة الطفل الغرير وهى مشبعة بالعذوبة والنضارة والبراءة فى أسمى معانيها. دهشة معدنها من ذهب سماوى أصيل لا يصدأ ولا يشيخ ولا ينفك يبهر باستمرار. ذهب لا تؤذيه نار الحرمان بل تزكيه وتصقله وتقويه.

والبالونة حثت خطاها لما شعرت بقلقك يتنامى. أما أنا فقد حاورتك بعد ذلك وابتدرت حوارى بالسؤال:

هل فى البدء قلت لرفيقة سفرك بأنها نضرة كنضارة النساء الحوامل؟

لا. كان ذلك فى وقت لاحق للرحلة وكنت أمدحها حينئذ فاستطابت نظمى فتوقفت لكى ترد على فتوقفت بدورى عن الكلام. الثرثرة هى جبلتها فلا تعجب يا صاح لكنها حلوة الحديث. وفى البدء شعرت أن الوقت يمضى سريعًا لكن المسافة التى قطعناها لم تك قد بلغت مرمى قبلة. والبالونة شعرت بلهفتى فتحدثت مرة أخرى وثرثرت كثيرًا. وهى كانت تريد أن تؤانس وحشتى وتخفف ضجرى لكن الزمن كان عدوى الأول. وأخبرتها مرارًا لكنها أبت أن تشاركنى ذلك الشعور لأنها لا تفهم معيار الزمن ولا تعبأ به. سرعة السلحفاة كانت تدمر أعصابى. هذا هو مصدر قلقى وأقسم أن إطرائى لها لم يبلغ منزلة الغزل. لا أشك فيك ولكنى أخشى التسرب وأخشى غيرة النساء.

وماذا كان سيحدث لو كانت استطابت الحديث معك واستمرأت التسكع فى أزقتك؟

لا فأل إلا حب فتاتى.

وفى ختام الحوار عبرت لك عن خشيتى من غواية الثعبان المندس بين ثنايا جناح البالونة الأيسر على الرغم من أننى كنت أقدر شعورك بأيادى الشوق التى كادت تمزق أحشاءك.

والبالونة تمضى بسرعة. وأنت تريد المزيد من التعجيل. أنت تريد سرعة بساط الريح الذى يطوى المسافات طيًا. وأحيانا تكون البالونة عبثية وأحيانا تكون مشاكسة لكن هون عليك فإنها معطاءة وخيرة وأهل للثقة. ولا تجزع فالقلق يبدد الطاقة ولا طائل منه. ولا تستجدى المستحيل فالاستجداء مغامرة قد تهرق ماء الوجه ثم لا تجنى منها مقدار نقير.

نضرة الوجه بهية الطلة طلقة المحيا ومدهشة هى شمس الأصيل. وفى هذه اللحظة تتدحرج فتاة الذهب إلى الأسفل وتتبسم بعذوبة وروعة ثم تلوح بكفها الرقيق وهى تودعك. والليل شد رحاله وأزمع على الهجوم. والليل حين يأتى فإنه يقتحم المكان اقتحاما مرعبا لا يمكن تجنبه ولا مقاومته. والليل فى الغربة وحش أرعن، وأنت تعرف ذلك. وشتاء الغربة طويل وخشن ورياحه تعوى ليلا وتخربش فى الصباح. شتاء وغربة وحزن وشوق كانت تنهال عليك طبقاتها كل

يوم. طبقات كثيفة من الرعب، طبقات فوقها طبقات.

وكان لزامًا عليك أن تهزم القلق. وهو قلق جد مشروع لأن البالونة أوصلتك إلى مكان ما فأهدتك ريشتين ثم طلبت منك أن تشرع فورًا فى الهبوط. وأنت لم تجزع بل تمسكت بالريشتين جيدًا وتمكنت من استخدامهما لكى تهبط بسلام. وهى ذهبت إلى حال سبيلها لأنها لا تستطيع النزول فهى بلا أرجل.

وأنت أيتها الرابضة فى أريكتك الوثيرة اتركى ألبوم الصور جانبا وتيممى شطر الصوت الآتى إليك وستعرفينه من سيماء رنينه الماثل بين يديك. هل شعرت به الآن؟ اقتربى أكثر فأكثر وهيئى مشاعرك كلها. وألبسى ثوب البشر الوثير، فقد دنت ساعة العودة. وأنا أعرف قصة حبكما وأحس بأن التوق يقرب الحبيب إليك أكثر فأكثر. هو يشتاق إليك كثيرًا ويهمهم بكلمات تقول:

مشوار العودة يا حبيبتى اكتمل

وذا سماءك الإكليل مصدق لما أتى به الحلم

عائد إليك تقودنى جحافل الصبا الدفاق كشعلة من جدائل العبير ونسمات شقيات رائعات من ندى ممراح وعطور تداعب الشكيمة اليتيمة

قالت إن موكب الحبور موعود بالسحق والذر فى عاصفة الضياع لكنها كانت دعابة الرفاق.

كلكلة

أخيرًا أقنع نفسه بأن الأمور مرتبة ترتيبا دقيقا وفقا للخطة التى كان قد أنفق أياما عديدة فى رسمها. وتماما عند لحظة وضع قدمه اليمنى خارج المصعد بدأت تنتابه شكوك قوية فى أن شيئا واحدا على الأقل سيفسد عليه تماسكه الداخلى. وبرغم ذلك مضى فى طريقه ووصل إلى المحطة وجلس وعض على سبابته اليمنى ثم وقف منتصبا يجول ببصره بين المبانى العالية البعيدة والسماء الصافية ثم عاد ليجلس على الكنبة الحديدية المتسخة وهو يهمهم بحديث فيه عتاب لنفسه وللظروف. ولم يهتم كلكلة بالمسافرين الآخرين القلقين المنتظرين للبص بل أصبح يعض على طرف سبابته مرات عديدة ويستدير يمنة ويسرة ويضرب بقبضة يده اليمنى على كفه الأيسر ويتجهم. وحين لمح لحظة اقتراب البص تظهر على وجوه الناس أقلع عما كان عليه واستعد للصعود.

ترجل من البص ثم ذهب إلى مكان هادئ يقع على مجرى مائى ضخم يربط مدينة أمستردام بقناة بحر الشمال. وما إن وضع جسمه

المترهل على الكنبة الحجرية الملساء حتى باغتته صورة الفتاة الخليجية التى صادفها فى متجر للملابس الراقية صاحبه لا يتحدث الإنجليزية إلا لماما. ولأن كلكلة كان قد أتقن الإنجليزية فى معسكر اللجوء فقد تطوع وقام بالترجمة وحين فرغ دعته الفتاة إلى فنجان قهوة. وقد سهلت عمليه التواصل بينهما بفضل خبرته الطويلة التى اكتسبها خلال سنوات عمله فى الخليج. وارتسمت بسمة عريضة على شفتيه حين اكتشف أوجه شبه كثيرة بينه وبين الفتاة الخليجية. وبعد وقت قصير من مغادرتها بحث كلكلة فى جواله الأنيق وفى جيوب السترة والبنطال لكنه لم يعثر على رقم هاتف الفتاة.

وضع رجله اليمنى على اليسرى وأنشأ يدخن ويستمتع بسجارته التى صنعها من تبغ رخيص. ولم يهتم بحرارة الدخان بل جعل يحدق مليًا فى السفن المغادرة للميناء الصغير وكذلك السفن القادمة والتى تحمل مسافرين مستبشرين ببلاد التنوع والتعددية والتسامح والإرادة القوية والذكاء المتقد المميز والنساء الفارعات الجميلات والحريات الواسعة. ولأنه وصل باكرا جدا فقد شعر أنه سيكون عرضة للملل والرجوع إلى البيت دون أن يقضى سهرة يوم السبت فى أحد المراقص. وساهمت شمس الصيف الساطعة فى بروز المزيد من حبيبات العرق التى كانت تبدو كالبلور على وجه الرجل الحنطى الغامق وعلى يديه. وخلافا للمتوقع فقد أبدى كلكلة شعورا فياضا

بالبهجة ووطن نفسه على ثقة ما بأنه سيرجع وفى جعبته عدد لا باس به من أرقام هواتف الهولنديات الشقراوات الجميلات.

فى وقت سابق نصحته خطيبته السودانية السابقة بألا يستجيب لسلطان الغضب حين يحضه ويزين له عملية مسح أرقام هواتف النساء اللائى لا يستجبن لدعواته. وفى الحقيقة كانت السودانية صادقة فى مساعيها الرامية إلى مساعدة الرجل فى الارتباط بخواجية شقراء. والسودانية كانت زميلته فى المدرسة الثانوية فى الخرطوم. وخلال السنوات التى كان يعمل فيها كلكلة فى الخليج كانت هى تدرس فى جامعة الخرطوم ثم تخرجت منها وذهبت إلى هولندا والتقت بكلكلة حين جاء من الخرطوم وخطبها لكنها اكتشفت أن الفارق كبير جدا فى المعتقدات والميول والطباع والخبرات العلمية والحياتية فافترقا لكنهما اتفقا أن يظلا صديقين

فورا بعد وضعها الأكياس على المقعد الحجرى المقابل لمقعد كلكلة أدارت الشابة الأنيقة رأسها وشملته بنظرة طويلة أشعلت فيه مشاعر مختلطة. وحين طال تحديق الفتاة أدار الرجل وجهه بعيدًا عنها لكنه عاد وحدق فى وجهها الجذاب ذى الملامح الدقيقة. ولأن الشابة الإندونيسية كانت قد أنفقت وقتًا طويلًا فى رسم الأحمر على شفتيها الممتلئتين فقد تمكن كلكلة من رسم صورة فى خياله تحتوى على تفاصيل دقيقة لوجهها الجذاب وقوامها الفتان. وفى اللحظة

التى اكتشفت فيها أنه كان يراقبها رسمت ابتسامة خمرية على شفتيها النضرتين ثم حولت بصرها بسرعة بعيدًا عنه ثم استدارت مرة أخرى لكنه لم يعطها فرصة لإدامة النظر حيث اكتشفت أنه عاد لممارسة سلوك التحديق نفسه.

استرخت الشابة الإندونيسية فى جلستها ووضعت رجلها على الأخرى وفى نفس الوقت أصبحت تستخدم كلتا يديها لكى تشد على طرف الفستان القصير وتتمكن من تغطية مساحة ما من فخذها. وأدارت رأسها وركزت بصرها على موج البحر الضارب بوتيرة ثابتة على الحجارة كأنه زائر يريد أن يزجى التحايا لها وللرصيف. وهدأ الموج حين أهملته ورفعت رأسها محدقة فى السماء الصافية. وأخذت تنفث دخان سيجارتها الأنيقة فى اتجاه الفراغ العريض. وفى لحظة ما رسمت بسمة خجولة عذبة على شفتيها الشهيتين لأنها كانت واثقها من أن كلكلة مازال يراقبها فى تلك الأثناء.

لم ينتبه كلكلة لمجموعة الشباب الصغار الذين انخرطوا فى سباق للزوارق البحرية الصغيرة لأن باله كان مشغولًا بأمر النحلة التى تركها فى شقته الصغيرة بعد أن يئس من طردها. وكان يمنى نفسه بأن تحدث معجزة تفنى الحشرة لأن البديل هو أن النحلة ستفسد عليه نومه حين يعود. ولما انتبه وجد أن الزوارق ذهبت فى اتجاه بحر الشمال عاد ليراقب الإندونيسية لكنه ألفاها منهمكة فى قراءة كتاب. كانت

منهمكة للدرجة التى أهملت فيها أكياس الملابس الجديدة وحقيبة الإكسسوارت وتركت بعض الأكياس مرمية على الأرض تلعب بأطرافها الرياح. وفى اللحظة التى كان يراجع فيها السيناريوهات المحتملة لعملية اقتحام عالم الإندونيسية والتعرف عليها انطلق صوت الطبول الهادرة والموسيقى وأصبح الصوت يقترب شيئًا فشيئًا ويبشر بكرنفال بهيج. ووقف كلكلة منتصبًا ومشرئبًا ومتحفزًا للمشاركة فى الكرنفال لكن حماسه انقطع وخارت عزيمته لما علم أن الفرقة أتت من دولة سورينام.

وجلس الرجل وهو يحمل مشاعر موزعة بين الانزعاج من النحلة التى لم يستطع طردها من الشقة وبين الامتعاض من الضوضاء التى سببها الشباب الصغار الغارقين فى متعة سباق الزوارق ذات الأصوات الهادرة. أما موضوع الشابة الإندونيسية فقد أقنع نفسه بأنه تحت السيطرة. ولأنه كان غارقا فى أفكاره ومنقبض الوجه ومصوبا نظراته نحو الأرض فقد اضطرت الإندونيسية إلى أن تأتى إليه ثم تلمس طرف كتفه برفق شديد. ومع حرصها الشديد إلا أن الرجل انتفض وأبدى دهشة واضحة لوجودها المفاجئ بجانبه. ولما جلست عرفته بنفسها ففعل هو نفس الشىء لكنه لم يحدثها بأن أمه إندونيسية لأن مخزون تجاربه السالبة فى هذا المجال قد زودته بعامل شديد التثبيط. وعلى أي حال فهى فى نظره لا ترضى طموح نفسه

التى سولت له سهولة الفوز بقلب خواجية شقراء.

كثير من الناس يحبون الزيف لذلك لا يرغبون فى رؤية الأشياء على حقيقتها إنما يغتبطون بالإحساس بالصورة المتوهمة التى تبدو جميلة عند النظر إليها فى شاشات الخيال. وكلكلة يعلم بزيف الكثير من أفكاره لكنه وعد نفسه أن يخلو معها تماما حال عودته ليلا إلى الشقة لكى يتمكن من إعادة تنظيم القصة وتحسينها وحبكها من جديد وتنقيح الحبكة حتى لا يترك ثغرات للنمامين والحاسدين الذين درجوا على إثارة سخرية الناس منه فى المجالس خاصة تلك المجالس التى تكون خطيبته السابقة من ضمن الحاضرين فيها. وقد قرر أن يعدل فقرات من قصة الإندونيسية وعلى الرغم من شروده الكثير أثناء اللقاء القصير إلا أن الشابة الآسيوية أبهجته بحديثها الحلو وبدلت مزاجه تمامًا.

اختفى الصبية المتسابقين مع لنشاتهم الصغيرة وتنفس كلكلة الصعداء لأنه شعر أن الذى ينتظره هو لحظات عذبة فيها استمتاع كبير بالبحر والنساء واليوم الصيفى الجميل. وجعل يديم النظر إلى السفن الذاهبة إلى أماكن بعيدة والسفن القادمة إلى الميناء. وأصبح يحلم برحلة بحرية إلى الكاريبى وأخرى إلى جنوب شرق آسيا. ولم ينتبه إلى وجود الفتاة السورينامية الخلاسية حليبية البشرة وذات القوام الإفريقى الجذاب على الرغم من أن تحيتها له كانت بصوت

عال. ولما وضعت كفها الرقيق على كتفه تنبه فأدار رأسه بسرعة خاطفة.

ضحكت السورينامية وقهقهت بصوت عال لأنها لاحظت ارتعاد فرائص الرجل بفعل اللمسة. لكن الشابة عادت وقمعت الضحك فهدأت رويدًا رويدًا ومدت له قبضة يدها ففعل هو بالمثل وضغط بشدة على قبضة يدها ثم وضع كل منهما يده على صدره. وتبسم كلكلة ثم طلب منها الجلوس ففعلت. ولاحظت أنه كان مرتبكًا ويتحدث بعبارات مضطربة ويكرر بعض الجمل القصيرة باستمرار. ولأمر ما ازداد حماس الخلاسية فتحدثت معه بلطف وسردت له بعض النكات. ولاحظت أنه كان يركز بصره من حين إلى الآخر على صدرها الناهد. وعلى الرغم من إعجابه الشديد بجمالها إلا أن قصته المنقحة التى سيسردها فيما بعد ستصف السورينامية بأنها فتاة متهورة مزعجة لها شعر أسود مجعد وأنف أفطس ويد غليظة وشفاه إفريقية بحتة. وفى لحظة ما تخلى عن حرصه وحدثها بأنه سودانى لكن أمه إندونيسية فغضبت منه غضبًا شديدا فامتعض وأشاح ببصره بعيدا عنها. وصمتت لعدة دقائق وهى مطرقة ثم عادت واعتذرت له فقبل اعتذارها لكنها لاحظت مشاعر الفتور على وجهه فغادرت المكان وذهبت لتجلس على الكنبة التى كانت تجلس عليها الإندونيسية.

عاد الشباب الصغار بزوارقهم وأرسوها على رصيف صغير تاركين المحركات تدور وتصدر هديرًا مزعجًا. وفى الوقت الذى كان يفكر فيه كلكلة فى المغادرة جاءت الخلاسية وأمسكت بيده وجذبته إلى مكان الفرقة الموسيقية السورينامية التى تعزف ألحانًا لاتينية وإفريقية. وتردد فى ذكر أسباب رفضه للدعوة لكنه حسم أمره أخيرًا وأخبرها أن الرقص خليع جدًا ولا يتناسب مع ثقافته السودانية. وتقدمت الخلاسية نحو شاب صغير من أبناء بلدها فدعته إلى الرقص فوافق. وكان كلكلة يراقب الراقصين خلسة مع التركيز على قوام الفتاة التى كانت كل دواخله معجبة بها. وفى لحظة ما جعل أصابعه فى أذنيه لكي لا يسمع صوت النحلة. ولاحظ أن البعض يراقبه فأقلع عن هش النحل وعن استنشاق الهواء لاختبار رائحة العسل فيه وعن لحس إصبعه للتأكد من خلوها من أى جاذب للنحل. وانزعجت السورينامية من التبدل المفاجئ الذى طرأ على مشاعر كلكلة فتركت الرقص وأسرعت فى خطوها إلى أن وقفت بجانبه وهمست فى أذنه بحديث طيب وكررت العملية عدة مرات حتى تبدل مزاجه.

ذهبت الخلاسية لتقضى أمرًا ما فشعر أن كل الناس سيغادرون المكان وستعم الكابة. وبعد نصف ساعة بالضبط أيقن بصدق حدسه لما رأى كل الناس يتضجرون. واستغل الظرف فانسحب إلى

كنبة فى مكان مهجور وأصبح يعمل بهمة على تنقيح وترتيب شريط الأحداث فى ذاكرته. وكان يوقف الشريط بين الحين والآخر ويردد فى سره العبارات التى سيذكرها فى وقت لاحق والتى سيحذفها من القصة. وكان من ضمن خطته أن يخبر خطيبته السابقة بالأحداث قبل إخبار الآخرين.

والمعروف عن كلكلة حبه للحديث فى أمور السياسة خاصة بعد أن رجع من الخليج وأصبح ناشطًا سياسيًا لمع نجمه فى شبكات التواصل الاجتماعى على الإنترنت. وهو يرتاح كثيرًا عندما يتحدث مع خطيبته السابقة لكنه يصفها بأنها مثقفة يسارية تضيع الكثير من وقتها فى الاشتغال بأمور السياسة وأنها ثرثارة جدًا وأنها حازمة وجادة أكثر من اللازم. وفى خضم انشغاله بأمر السودانية تذكر اللحظات الحلوة التى قضاها مع السورينامية فندم على ما فعل وأنب نفسه لأنه وضع حسابا للمتطفلين والنمامين فصنع بذلك عائقا منعه من الرقص معها

كاد أن يقتله الملل فقرر ترك الكنبة وتسكع على طرف الرصيف. وابتعد وأخذ ينظر إلى الأفق العريض العميق البعيد وإلى البحر الذى يمتد إلى ما لا نهاية. وتمنى أن يتحرر إلى الأبد من الازدحام وقلق المدينة وازدرائها للسكينة وضيق أفق التقاليد التى يرتديها تحت قميصه المزركش. وفكر فى أن يؤوب ويمسك بيد الخواجية الشقراء

التى كانت تسير فى الاتجاه المعاكس ويصعدان معًا على ظهر إحدى السفن المغادرة. والصورة الكاملة للمرأة التى رسمها فى خياله تدل على خواجية جميلة لكن لها جسم يشبه جسم السورينامية بعد أن يعدل وتنزع منه بعض الملامح الإفريقية. إن هدوء البحر يقودنا أحيانا إلى الجموع فى كل شىء وإلى الحركة الدائبة للصور الداخلية التى نصنعها ونعدلها باستمرار وإلى توقع السحر وتوقع المفاجآت وإلى متعة خاصة لا نهائية تلامس حدود الجنون واللا معقول.

أحس كلكلة بأنه ابتعد كثيرًا فآب راجعًا وحين وصل إلى النقطة التى تحرك منها وجد أمامه الإندونيسية والسورينامية تجلسان معًا وتتحدثان بلغة سورينام بينما رفيقاتهما الخواجيات يتحدثن باللغة الهولندية. ورفع صوته عاليًا حتى تتمكن النساء من سماع تحيته. وبعد لحظات ردت عليه السورينامية التحية ثم قالت لرفيقاتها:

هذا هو صديقى الإفريقى الذى حدثتكم عنه.

مساء الخير

أهلا وسهلا ومرحبا بك.

وصله الرد الجماعى رقيقا ولطيفا ودافئا. وعلم فيما بعد أنهن صديقات أتين إلى التسوق واتفقن على التلاقى فى ذلك المكان. ولأنه لم يك مهيئًا لا ذهنيًا ولا عاطفيًا لكى يكون الرجل الوحيد وسط مجموعة كبيرة من النساء، فقد تحدث معهن بعجلة واضحة فعرفهن

بنفسه وتحدث باقتضاب عن السودان ثم ذهب.

فكر الرجل فى الرجوع إلى شقته والاتصال بالبنات لكنه طرد الفكرة لاعتقاده بأنه لم يحقق بعد كل طموحه من الرحلة. وخطا نحو مركز المدينة القريب من المحطة. وفى الطريق كان يفكر فى شراء ويسكى أسكتلندى أو فودكا روسية ويسكر بطريقته القديمة. وفى لحظة ما تردد فعدل عن الفكرة وذهب إلى متجر واشترى أكلًا وعصيرًا ثم جلس على مقعد خشبى. وأخرج قطعة مافين من الكيس وضغط بطرف سبابته وإبهامه فقطع منها قطعة صغيرة جدا ثم وضعها فى لسانه ولاكها. وجاء رجل عجوز مع زوجته فحياه وقال:

بالهناء والشفاء

ورد التحية وشكر الرجل وزوجته

ولأنه كان يأكل ببطء شديد وبطريقة مميزة فقد توقف عشرة رجال ونساء بعد ذلك وراقبوه خلسة وحيوه ثم تمنوا له الهناء والشفاء. وحين جاء دور زمرة من المراهقين أظهر لهم تضجره الواضح لكنهم لم يتركوه فى حاله فصاحوا وأزعجوه وتندروا من شكل جثته البدينة ومن قميصه الذى كان يشبه أقمصة الدراويش المتصوفين وبنطاله الواسع الذى أضفى عليه منظر المهرج. ودار الجمع حوله وتندروا ولما تأكدوا أنه متضايق منهم اعتذروا له وذهبوا. وأغمض عينيه

حتى يستطيع التحكم فى الغضب وعندما فتحها وجد أمامه قطعة المافين فأخذها وقذف بها بعيدا. ولما عاد إليه الهدوء جذب نفسًا عميقًا ثم حدث نفسه قائلًا:

أضعت فرصة نادرة جدًا يا كلكلة فلا تحلم بأن تجد مثلها فى الديسكو. البنات فى الديسكو ثملات وطائشات ومتهورات ويعبرن عن مشاعر زائفة. إن خطيبتك السابقة هى أفضل من يرافقك إلى الديسكو لكنها ظلت ترفض عروضك انصياعًا للتقاليد السودانية. هى متحررة لكنها تكره الديسكو والسكر!! هذا تناقض واضح. أعتقد أنها فى داخلها لا تكره السكر بل تمارس النفاق. والذى جعلك تعب الكأس سرًا هو فراقها، أليس كذلك؟ وهل كانت الإندونيسية معجبة بك كثيرًا لذلك أصبحت تغير من السورينامية؟ إن عيونها تقول ذلك والعيون لا تكذب. وأصبحت أخيرًا ترفض فى سرك لقب الإندونيسى الذى أطلقه عليك زملاؤك الخليجيون لما تأكد لك أن السبب هو ربط الاسم بقصر القامة وليس بالأم. هم كانوا يعتقدون أن السودانى إما متوسط القامة أو طويل. وقد يكون انطباعا خاطئا لكنك لست ملزمًا أن تصحح ذلك بل كان عليك أن تكون أنت أنت وأن تؤكد لهم سودانيتك. والفتاة الخليجية رسمت على وجهها المليح ابتسامة ملائكية حين أخبرتها بأنك مسلم. واستطبت حلاوة عينيها واعتدال قوامها وعذوبة حديثها فنسيت

أن تسجل رقم الهاتف. حسنًا لا تضيع وقتك فى التحسر لأن عليك الآن أن تركز فى الخطة. كن حازمًا فى التنفيذ والخطوات ستكون وفق الترتيب الآتى.

اقمع صوت النحلة الذى ظل يضايقك، اقمعه سريعا وبحزم وإلى الأبد

تيمم ثم ولى وجهك شطر القبلة وصلى، اجمع كل الصلوات

توجه إلى أقرب متجر للخمور واشترى أفخم ويسكى أسكتلندى

عد إلى هذا المكان واشرب واشرب حتى يحل الظلام

اذهب إلى صالة الديسكو التى اعتدت أن تذهب إليها.

السـمـنـدل

فى نفس هذا المكان وقبل عام بالضبط التقينا وجلسنا على نفس هذه الصخرة. واليوم أرى أن الأشياء قد بدلت أثوابها فى فترة غيابى فبدت لى كمغارات مهجورة ومخيفة ومحيرة. شاطئ البحر المدهش العريض تبدل والصخور الصلبة التى عودتنى على قوة شكيمتها وثباتها على المبادئ والخيشوم الوردى الأنيق الذى ظللت ممسكا به برفق شديد، كلها لم تنجح فى اختبار الصمود. وبالأمس البعيد عقدنا الاتفاق التاريخى وأوفيت بما عاهدت عليه لكن صاحبى أوعدنى وذهب وغاص فى العمق المثير المذهل ثم اختفى.

أخبرنى أنه ساذج زهيد العلم ومحدود التجربة فقمت بتدريبه تدريبا جيدا حتى توافرت لديه المهارات اللازمة والقدرات المطلوبة لتنفيذ المهمة. وكنت فى ذلك الوقت أطعمه وأقوم بتوفير كل المعينات اللازمة للتدريب. وبعد أن اطمأن قلبى على أنه استوعب كل تفاصيل الخطة، زودته بكل المعلومات والمعدات. وقبل أن ينقطع اتصاله بى كنت أمده باستمرار بالمعلومات اللوجستية.

فى ذلك اليوم وقبل أن يقذف بجسمه إلى البحر استدار ببطء شديد وحدق مليًا فى جبينى. وكانت نظرته مريبة جدًا ومثيرة للقلق أرغمتنى على أن أبادره بالسؤال:

ما بك

لا شىء لا شىء، لكن البحر عميق جدًا وعريض.

نعم. وما الجديد فى هذا؟

إنه لا يتوقف عن إنتاج المفاجآت.

ويحك لماذا تتحدث بالألغاز. أفصح يا صاحبى.

ولم يعر حديثى الصارم أدنى اهتمام بل تبسم وتبسم ثم قهقه عاليًا ثم قفز وأدار نصف جسمه الأعلى وغاص فى اللجة الزرقاء. ومنذ ذلك الحين ظللت أحدث أصدقائى بقصته وأعيد الحكاية وأحاول إقناعهم بأنه زين لى الأمر كأنه صفقة رابحة ثم تعهد لى، وأكد تمسكه بأن يوفى بما عاهد عليه ثم اختفى. وقد يظن البعض أننى أتوهم شيئًا لا أساس له أو أننى أخلط الحقيقة والخيال فأدس بعض الفقرات بين طيات الأحداث التى وقعت فعلًا، لكن لا شىء من هذه الظنون صادق.

نعم أعتبرها حالة اختفاء مقصودة، برغم آراء الأصدقاء التى كانت تخالفنى فى هذا، لأن هذه ليست الأولى بل المرة الثالثة التى أجلس فيها على الصخرة الملساء وأمضى الساعات الطوال منتظرا

وصوله الذى سميته أخيرا بالقطار المستحيل. وأنا الآن أمسك بالخيشوم كما يمسك العاشق بوردة يانعة غضة يريد أن يقدمها لمحبوبته المدللة التى حيرته بمواعيد حضورها المتذبذبة لكنه أبدًا لم يفقد الأمل فى مجيئها. وفى المرة السابقة حذرنى من أن أترك الخيشوم يتسرب من بين يدى فى حين غفلة أو سهو لأنه صك مفرد قادر بذاته على أن يدلنى عليه.

المكان هو نفس المكان، لكن الحيوان الجديد الذى برز لى قبل قليل من بين ثنايا الموج البعيد هو مختلف جدًا عن الأول. وتكمنت سريعًا جدًا من أن إبرم اتفاق معه ويقضى بأن أوفر له ما يحتاج إليه على أن يستخرج لى اللؤلؤة النادرة من قاع البحر، وهو يشبه كثيرًا اتفاقى مع الأول. إن هذا الكائن الجديد الماثل أمام ناظرى يشبه صاحبى الأول فى طريقة العوم المتخبط وحركة أعينه التى تشبه مصابيح سيارة الأوستن الكلاسيكية والإشارات المريبة التى يكثر من تكرارها والصوت الذى يحاكى على استحياء صفارة الإنذار. لكن الفرق بينهما هو اللون، إن لون الثانى هو أخضر غامق وهذه هى السمة الفارقة. وهى حاسمة جدًا لذلك سهلت على عملية التعرف لأن الأول، صاحب الوعد الخلب، هو حليبى البشرة تزين رأسه خياشيم تشبه الورود. أما الحيوان الثانى فجسمه أملس وبه بقع ذهبية نضرة كثيرة منتشرة بانتظام، وهو أكبر حجمًا من الأول

وأشد صرامة وجه.

حين وصل الحيوان الثانى أعطيته الخيشوم فسخر منى وقهقه عاليًا ثم استدار وسبح برشاقة ملفتة واختفى بين طيات الماء. وحين خرج من جديد وقف بالقرب منى وحدق مليًا فى وجهى. ولمحت علامات التعاطف الظاهرة على وجهه. وأطرق مفكرًا ثم قال:

إن الصبى من قبيلتنا يا صاحبى هو فقط من تنمو على رأسه الخياشيم، إنها خياشيم تشبه الورود إذا أردت الدقة. وإذا كبر ستختفى الخياشيم ويتبدل لون البشرة. وصمت برهة انتظارًا لردى الذى لم يرَ النور. ورسم ابتسامة خبيثة ظلت مطبوعة لعدة دقائق على صفحة وجهه ثم استدار وقفز وغاص.

ولما عاد الحيوان مرة أخرى أعطانى أصدافًا نادرة مختلفة الألوان والأشكال وأوصانى أن أتوخى الحذر وأن أذهب إلى خلف الجبل حتى إذا اطمأن قلبى إلى خلو المكان من اللصوص والخونة، أبدأ بفتح الأصداف. وقبل أن يبدأ بسرد بنود الاتفاق المقترح أقسم لى أن صدفة واحدة على الأقل توجد بداخلها لؤلؤة.

نصحنى أصدقائى بألا أوكل البتة عملا لصبى غر زهيد التجربة لكن أعجبنى حسن العرض والدفاع عن خطط العمل التى قال إنها ستنفذ بدقة متناهية حتى يتم استلامى للؤلؤ. إنها نفس المراوغة والوعد الكاذب التى اختفى بعدها صاحبى الأول وانتظرته كثيرا

فلم أجنِ سوى السراب. والآن يريد الشاب الجديد أن أصدقه.

إن العهد هو اتفاق أخلاقى وقانونى يلزم المبرمين له أن يوفوا به. إن الوفاء بالعهد أسهل من الوفاء بالنذر لأن الأول هو اتفاق بين طرفين لكل منهما مصلحة حقيقية فى تنفيذه لذلك يسعى كل من الطرفين لإنجاح الاتفاق، أما الثانى فهو اتفاق بين المرء ونفسه، لذلك فالإيمان بالمبادئ والأخلاق والقيم هو الضامن الوحيد لتنفيذه.

قبل أن يصل إلى هنا تمرغ السمندل الأخضر فى الوحل تمرغًا مزعجًا ومريبًا لا يمكن تفسيره إلا بتحليل فكرة ولعه الخرافى بالعبث بكل لين يطاوعه. وبعد أن قضى منه وطره عاد إلى الماء فغسل بشرته اللماعة ثم توجه صوب الصخرة. وأنا أعلم أنه سمندل راشد رغم حبه للهو وفوق ذلك فهو مجرب وعنيد ومثابر لا يخشى الصعاب. ولكن أن أثق فيه ثقة كاملة فهذا بلا شك هو الجنون عين الجنون. وفى خضم سعيه لعقد اتفاق معى حكى لى أنه لا يخشى خوض النار من أجل أن يحصل على الذهب الرابض فى الجبل والمندس بين ثنايا البركان الفوار لأن النار لا تأثير لها إلا على صفحات جلده الذى يحترق، لكن لا يفنى بل ينمو من جديد ويرمم نفسه بنفسه. وأدرت وجهى عنوة فشهدت الموج العاتى ينتفض ويستعد ربما لردع الحيوان العابث لما سمع ادعاءه الباطل.

إن الخائن للعهد والأمانة هو إنسان لا يرى الحقيقة إلا فى نفسه ولو كان يراها فى غيره لما خان وطنه أو زوجته أو أهله أو عشيرته. وهو لا يكن له احترام لأنه ظالم وكذاب، وهو لا يؤتمن لأنه غدار وطماع، وهو لا يمكن إرضاؤه لأنه شديد النهم.

إن الذهب الخالص لا يخرج إلا من جوف اللظى الفوار الرهيب، هذه حقيقة لكن ادعاء السمندل بإمكان خروجه سليمًا من النار هو محض حيلة رخيصة مكشوفة. والنار تخمد بعد ثورتها الحمراء لكن يبقى الذهب. والدخان يطير ويهرب وينكشف زيفه لكن يبقى الذهب لأنه أصيل ووفى وواثق من نفسه وثابت على المبادئ. لقد صدقت السمندل الأول الذى اختفى فى جوف البحر العميق وما زال حكمى عليه معلقًا برغم الشكوك الكثيرة. أما السمندل الثانى فهو حاضر أمامى وسيسمع بعد قليل حيثيات حكمى عليه.

الفهرس

- فتاة من عشيرة الطل 5
- خلاسية 17
- عهد 27
- تواصل 41
- كرسى 49
- أم أيمن 61
- صداقة 71
- لمياء 81
- شهاب 91
- كشف القناع 99
- وعل وبجعة 109
- سلحفاة 119
- لعنة التغيير 129
- ميت 137

- صباحى 151
- رئيس إفريقيا 167
- المشرد 179
- العودة 197
- كلكلة 207
- السمندل 221